LOUIZA BADAOUI

رواية

أمي تكرهني

و أنا أيضا

لويزة بداوي

حكاوي الكتب

لويزة بداوي - أمي تكرهني و أنا أيضا

رواية

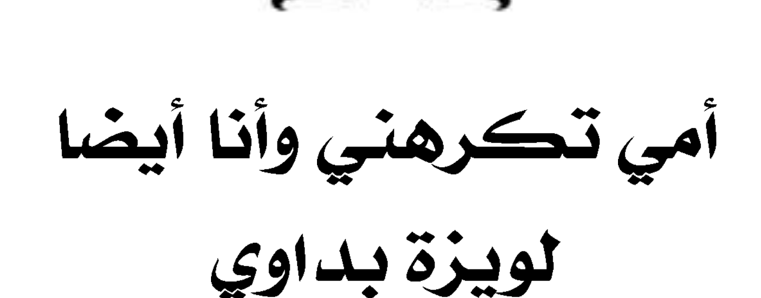
لويزة بداوي

أمي تكرهني..وأنا أيضا

الغيرة ملح الحب بين الحبيبين
وسلطان قاتل بين الزوجين
وخنجر حاد بين الصديقين
لكن ماذا لو كانت هذه الغيرة من
أقرب الناس إليك
غيرة من تحت قدميها الجنة من
فلذت كبدها ؟
رانية بن عومر







أمي تكرهني وأنا أيضا

لويزة بداوي

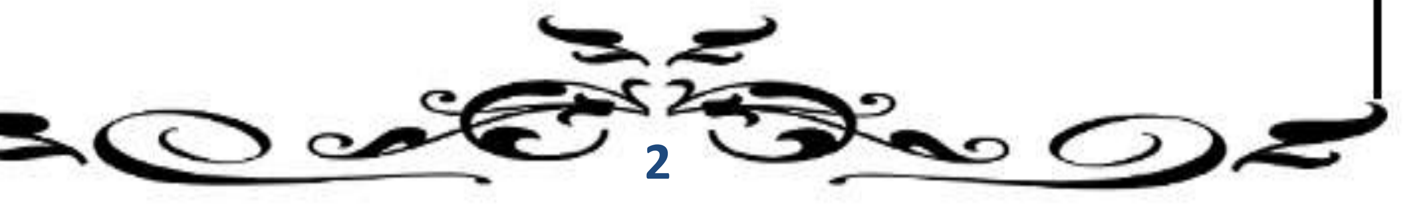
حكاوي الكتب للنشر الالكتروني

www.hakawelkotob.com

تدقيق: هالة جبر

تصميم: فاطمة الزهراء

www.hakawelkotob.com
لويزة بداوي
أمي تكرهني وأنا أيضا



المقدمة

لم تتصفني الحياة يوما ، و لم تفتح لي نافذة الأمل

انتهى كل شيئ ، بسبب القدر ، و بسببها هي

لا تسردوا مشاكلكم التافهة على مسامعي

فـ لا شيئ يساوي غدر من كنت في بطنها تسعة أشهر

فهو منقطع النظير ، بل غير مصنف

صدقا ، هذه الحياة غريبة ، غير عادلة

أغلب المشاكل تصنف في قائمة خيانة الحبيب أو غدر الأقربون...

لكن !

ماذا عن غدر الأم ؟

لن تصدق، لكنه حتما شعور غير مصنف

ولفتاة مثلي لا تشتكي ، زاد بطش الأم ، وتناست أن هناك رب لا ينسى.

بقلم: لبنى مشقق



إهداء

-إلى لمياء على صمتها.

حفاظها على صورة أم لم تكن تتوانا في صب حقدها عليها

للمياء الضاحكة التي عرفت جيدا كيف تخفي معاناتها.

حتى حسبها الأقربون بلا قلب.

-إلى مريم و رجاء .

-إلى صديق في موقع وهمي رسم البسمة في وجهها يوما



-إلى وليد الذي لم يتغير وكان أحن عليها من والدتها.

-إلى يوسف وحبه الغريب لها.

-إلى شجاعتي يوم كتبت قصتها بالعامية، وقد عاهدت نفسي أن لا أكتبها.

لويزة بداوي

شكر :

-إلى ذلك السند الخفي الذي يساعدني في كل فصل

-إلى توأمي لبنى مشقق ومساعدتها لي وقت إحتياجي





-إلى مصمم الغلاف علاء الدين بوزيد

-إلى المدققة اللغوية وفاء تفاح

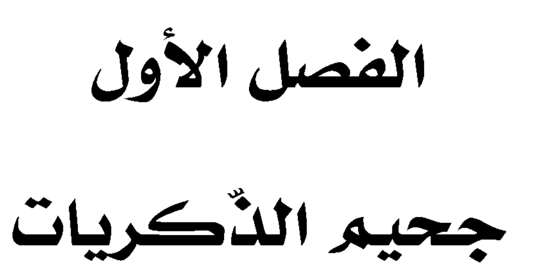
-إلى قارئتي الأولى (زيزي)

-إلــى الغاليــة عبيــر حســام وموقــع حكــاوي الكتب

شكرا لكم من القلب

(لويزة بداوي)





الفصل الأول

جحيم الذّكريات

ككلّ ليلة أحمل منشفتي على كتفي وأتوجّه صوب الحمام في ثلث الليل الأخير، أتوضأ وأصلّي ما تيسر لي وأنتحب على سجادتي، تلك الرّاحة وأنا بين يدي الرحمن لا أستطيع وصفها، لا أحد له سلطة عليّ غير اللّه وأبي بعده، كنت في ما مضى من الزمن أدعو لأهلي بالهداية، أما الأن فأدعو لهم بالموت حرقا في هذا البيت اللّعين، كم بتّ



ألعن كوني إبنتهم، إنه لأمر مرهق أن تعيش في بيت لا أحد فيه يريدك، لولا دموع والدي ذلك اليوم لكنت الأن في الشارع، وقد أصبحت عاهرة من الدرجة الأولى، طالما كنت أضعف أمامه تحديدا، صحيح أنه تخلى عني وأفلت يدي، إلا أنه مختلف تماما عن أمي، لا أعرف كيف إحتملها طيلة ثمان وعشرون سنة، أعرف أن بيتي جهنم، ولا أريد جهنم أخرى غيره، وربما لن تطول هذه المعاناة كثيرا، أشعر أن كل شيء سينتهي في ليلة ظلماء لا قمر فيها. هكذا يقول حدسي، وحدسي لا يكذب أبدا.



ذلك اليوم والكل نيام شعرت بالجوع ينهش بطني، لم آكل منذ أيام، لا أعرف كم مرّ بالضبط لكنني أرغب الأن بأكل الأخضر واليابس ولا أظن أني قد أسكت ذلك الجوع الكافر، سكون مخيف يخيم على المطبخ، الأواني المتسخة تملئ الحوض لا أعرف لما تصر أمي على تركها هكذا للصباح، لولا مرضي لكنت من نظف كل هاته الفوضى، الحمد للّه على نعمة السقم الذي أنقص عن كاهلي كل هذه المعانات اليوميه وكأنني خادمة.

إتجهت صوب الثلاجة بخطى متثاقلة، وما إن فتحته صفعتني رائحة

البصل العفنة. "ما هذا؟ أيعقل أن تضع بقايا السلطة دون غطاء؟ أمي

انت حقا عفنة، وهل يعقل أن يصل بك البخل حدّ الإحتفاظ بسلطة

الخس سريعة التلف لغداء اليوم الموالي؟"

شعرت بالغثيان وبأني سأتقيّأ لو بقي إستنشقت تلك الرائحة مدة أكبر وأنا التي أصبحت أتحسس من كل شيء بعد مرضي، أغلقت باب الثلاحة بعنف وإستندت على الجدار، لم تعد لي قوة لأقف مجددا، فمرض اليرقان أو

(بوصفير) أهلك مقاومتي وجعلني طريحة الفراش مدة ثلاثة أسابيع، ثلاث أسابيع وكأنني مريضة بمرض خبيث معدي، لا أحد يدخل غرفتي ولا أحد يحاول تخفيف ألمي ولو بكلمة طيبة تمحي عني ألم البطن الحاد، والغثيان الدائم، إلا آخر العنقود وليد، أو "وليدي" هكذا أسميه، صدقا لا أدري كيف أن شخصيته تختلف عن الكل بطريقة ملفتة للنظر، وكيف له القدرة على الشعور بي دون أن أفصح.

طالما سهر من أجلي ولعب دور الأم الذي من المفروض أن تتقمصه من أتت بي للحياة، أمي

التي أصرت على الإبتعاد عني وكأنني لست من لحمها ودمها ، وكأنني لقيطة من علاقة محرمة وقع فيها زوجها مع عاهرة وإضطرت هي لتربيتي خوفا من الفضيحة .

كل تلك الإحتمالات والفرضيات كانت تؤرق نومي وتجعلني أشعر بالجنون، لم أشعر بحنان الأم الذي يتحدثون عنه في القصص الأثيرة والعبر التي يضرب بها الأمثال، كيف لي أن أحصل على أم بنكهة عدو، وأي عدو! كعداوة إسرائيل وكرههم للعرب، أو أشد ..

بعد أن إشّتد المغص حدة وأنا على حافة الإنهيار حملت نفسي بكل ذلك الثقل

وخرجت من المطبخ أجرُّ خيباتي ورائي، وما إن لمست قدمي بلاط الرواق حتى إنهرت على الأرضية، وآخر أمنياتي أن لا أنهض بعدها، وكم تمنيت لقاء ملك الموت وأنا في جلستي تلك.

ومن سوء حظي خرجت أمي من غرفتها في تلك اللحظة، لتصرخ عاليا كعادتها وكأنها رأت جنية أمامها، محاولة إفتعال مشكلة لا تنتهي إلا بإنهمار عبراتي.

-ماذا تفعلين خارج فراشك؟ ألم يحذرك الطبيب من الخروج، ستنشرين مرضك في

المنزل، وتنقلين العدوى لإخوتك، وكأنك تتقصدين فعل ذلك...

لم أجد لسانا أتكلم به وأرد على إتهاماتها الشنعاء، إكتفيت بالإنكماش على نفسي أكثر وزادت مرارة نحيبي وبدت ملوحة العبرات علقما في حلقي .

لم أسلم من شرها ونظراتها المتقدة المصوبة نحوي، نادت على أخي الأكبر محمد بأعلى صوتها لكنه لم يجبها ببساطة لأنه كان غارقا في نومه، طبعا كل منبهات وصرخات العالم لن توقضه.

بدل محمد خرج وليد "وليدي" وهرول جاريا نحوي وأنا على شفى الإنهيار، جلس أمامي وحاول رفع وجهي، بينما إشتد ألم بطني وفجأة بدأت أشعر بالوهن يسري بجسدي شيئا فشيئا، ليخيم علي ظلام حزين لم أخرج منه إلا وأنا في سريري، بعدما فقدت وعيي وأنا في أشد لحظاتي احتياجا لأمي، ماذا كان سيحصل في العالم لو أن أمي أمسكت بيدي وطمأنتني؟ ماذا لو قالت فداك كل شيء يا ابنتي! لا بأس أن أصاب بعدوى مرضك، كوني بخير فقط، ماذا كان سيحصل؟

ألا يحق لي أن أشعر بحنانك وأنا في أوج لحظات حاجتي لك؟ كيف

لك أن تتخلي عني وتسلمينني لابنك الأصغر وكأنه هو المسؤول عني؟ ماذا لو لم يكن وليد أخي؟ كم من الوقت كنت سأبقى عاقلة ولم يصبني الجنون بعدما أفلتني أبي وصار بصفك؟

أتعلمين يا أمي! أبادلك الكره بالكره ليوم الدين، لن أغفر لك ما عشته بسببك وبسبب أولادك ولو كانت آخر أمنياتك.

فتحت عينيّ ووليد بجانبي على السرير يضع لي كمادات باردة لينزل درجة حرارتي التي

قاربت ال 40°، كنت بين اللاّ وعي واليقظة، وكيف كانت لهفته على تمريضي بادية، وما إن فتحت عيني على إتساعهم حاولت النهوض غير أن يده كانت الأقرب لإرجاعي.

-إبقى كما أنت، لا تتحركي! ما تزالين مريضة.

بعد أن يئس من خفض حرارتي ذهب وأيقظ والدي وتم نقلي للمستشفى على عجل.

فتحت عيني في غرفة ضيقة بسريرين حديديين يكاد يلتسق أحدهما بالآخر، يفصل بينهما ستار بلاستيكي متحرك، وخزانة حديدية صغيرة بجانب كل منهما

تفوق ارتفاعهما بحوالي العشرين سنتمتر، ما لفت إنتباهي ذلك الطلاء الرمادي الكئيب، شعرت بالإختناق ما إن لمحت شكل الغرفة الحزين، لم تمر سوى لحظات ودلف الغرفة شاب شديد الوسامة، يرتدي مأزرا ناصع البياض، وعلى وجهه ابتسامة ملائكية رقيقة، لم تمنع ظهور تلك الملامح الرجولية خلفها، قال بصوت أجش بينما يعدل نظاراته:

-كيف حال مريضتنا اليوم؟ آمل أنك ارتحت قليلا، وانخفضت حرارتك! كنت شبه ميتة حين أتوا بك البارحة..

تهت في تقاسيم وجهه ونظراته المغرية وصوته الحسن كصوت البلبل، لم أستفق من سكرتي إلا وكفه الرقيق يقيس حرارة جبهتي.

تلاقت الأعين وتعانقت الأنفس وما هي إلا لحظات وإنهار سقف أحلامي فوق رأسي، وقد أخرجني صوته الناعم الرجولي من أحلام اليقضة..

-أنت بخير الأن وحرارتك انخفضت غير أنك لا تبدين بخير، نظراتك مشوشة؟ هل تشعرين بمغص في بطنك؟

إستجمعت شتات نفسي وأخفضت بصري في خجل، قلت بتلعثم:

-أحم، أنا بخير شكرا لكن متى سأخرج؟ لن أطيل البقاء هنا أليس كذلك؟

إبتسم بخبث وقال بنبرة مازحة:

-هل مللت مني بسرعة؟ سأكون مشرفا على علاجك حتى خروجك من هنا.

ياه ماذا يقول هذا؟ وهل يملّ الناس منك؟! أتمزح معي؟

كان لسان حالي يقول دون أن أفصح، غير أنني قلت بتهور، دون أن أضع حساب لما يخرج من فمي:

-وكيف لي أن أمل منك!...

بترت الجملة قبل أن أتورط أكثر وقلت بخجل:

-طبعا لا ما تراه في صالحي أنا جاهزة له.

ضحك بصوت مرتفع وقال بمزاح قبل أن ينصرف في حال سبيله:

-تعجبني اللي تاخذ الراي.

أغمضت عينيّ بشدة محاولة الإحتفاظ بصورته في مخيلتي أكبر وقت ممكن، علني أنسى بعضا من أوجاعي فالتأمل في خلق اللّه عبادة أيضا أليس كذلك؟

مرّ يومين على وجودي في هذه الغرفة المقفرة لا أحد يدخلها إلا الطبيب الوسيم، أو أخي وليد، وأبي وقت الزيارة فقط، لم يأت محمد ورضا لزيارتي ولا مرة، بينما أمي لم أحلم أنها ستخطو داخلها ولو مكثت فيها دهرا.

شعرت بالغربة وأنا في وطني وأي غربة.! غريبة أنا بين أهلي وخلاني، زارتني كل

العائلة قريبون كانو أو بعيدون، بينما تحججت أمي بكرهها لجو المستشفيات ..

إستيقظت يوم خروجي الخامسة فجرا، كأن النوم تحالف معهم ضدي وجفاني، غزت الذكريات العابرة مجال رؤيتي المشوش والتقطت ذكرى حصلت في قبل ثمان سنوات في غرفة تشبه هذه في تفاصيل حزنها الرمادي.

أتذكر ذلك اليوم من صيف 2006 عصرا وأنا ألعب خارج البيت مع بنات الحي، كنت أشعر بتوعك وألم أسفل بطني، بما أن لباس الصيف خفيف كنت أرتدي سروال قماشي

وردي اللون، وقميص دون أكمام، كنت ابنة الثانية عشر سنة لا غير، كأي طفلة في سني لا أزال أجهل جلّ أمور الحياة، جلست أعلى الدرج أمسك بطني علّ الألم يخف، مرّ وقت لا بأس به وأنا على تلك الحال فقررت الذهاب للمنزل علني أجد مسكنا للألم، وما إن ودعت الفتيات وإستدرت لأمضي في طريقي حتى صرخت إحداهن مندهشة:

-لمياء ما بك؟ هل جرحت نفسك، هناك بقعة دم على سروالك؟

تفقدت نفسي بخوف محاولة التذكر إن جرحت حقا غير أنني لم أنتبه للأمر، كانت

بقعة دم صغيرة غير أن الشعور أن هناك شيء خاطئ يحدث جعلني أرتجف، حملت نفسي ودلفت بسرعة للمنزل، وما إن رأيت أمي، اتجهت صوبها أكاد أبكي من الخوف، وما إن لمحت الدم في سروالي حتى انفجرت صارخة:

-يا خامجة وين كنت؟

لم أشعر بشيء إلا وكفها مطبق على خدي بقسوة، شعرت أثنائها أن العالم توقف، وأنني أصبت بالصمم، حقا لا أدري لماذا فعلت ذلك يا أمي، هربت من العالم لحضنك فتلقيت صفعة العمر التي لن تمحى من ذاكرتي ولو هرمت وتلاشت ذكرياتي جلها.

أمسكت بوجنتي أتحسس مكان الألم، وباليد الأخرى أتحسس بقعة الدم أتساءل من أين جاءت.

زادت من صراخها وكأن جنا تلبسها، حتى خرج أخي الأكبر وأبي إثر اتهاماتها الباطلة.

-أرواح تشوف المصيبة تاعك جابتلنا العار...

بربك يا أماه أي عار تتحدثين عنه؟ كنت ألعب لعبة " الغميضة " مع بنات الحي، حتى أنني لم أستمتع باللعب كما أريد، لا أعرف مصدر تلك الدماء، ولا أعلم حتى سبب صفعك لي..إتقدت عينا أخي كالجمر مما جعل أوصالي ترتعد من الرعب، أما أبي فكان

أقرب لي تلك الفترة قبل أن يتغير ويصبح في صفها، إنحنى بجسده أمامي حتى أصبح بمستوى جسدي الهزيل، تفحص تلك الدماء وقال بنبرة حانية.

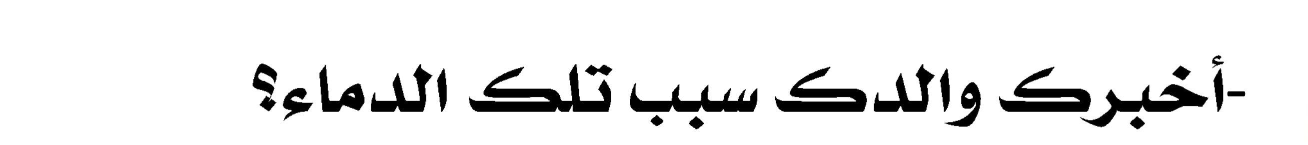
-ماذا حصل حبيبتي من أين أتت هذه الدماء؟

لم أستطع الحديث ولم أستطع كتم شهقاتي، وإزداد ألم بطني حدة، كان كفي يطوق وجنتيّ محاولة الهروب من نظرات أمي الشامته وأخي المتهمة، لم أشعر بنفسي إلا وأنا فوق سرير المستشفى والمصل معلق في ذراعي الهزيلة، وأبي بجانبي على كرسي شاخص بصره في اللاشيء.

سرت رعشت بجسدي جعلتني أنكمش على نفسي، إنتبه أبي أنني إستفقت، ليقول بلهفة محاولا طمأنتي:

-لمياء حبيبتي أنت بخير لا تقلقي..

آه كم شعرت بالخوف حين دخل أخي إلى الغرفة ، خوفي أن أتلقى صفعة أخرى دون أن أكون مذنبة حقا، إكتفي بالجلوس بجانب أبي في صمت ولم أجرء أنا على النظر في عينيه، وبعد إنتهاء المصل نادى الممرضة، بعد أن نزعت الإبرة بخفة، قالت بنبرة رقيقة، ممسكة بيدي بعد أن نزلت من السرير.



-أخبرك والدك سبب تلك الدماء؟

أومأت برأسي سلبا ولزمت الصمت، لتردف هي بنبرة حانية رقيقة.

-أصبحت الأن امرأة عزيزتي ولم تعودي فتاة صغيرة، وهذا شيء طبيعي يحدث مع جميع النساء دون استثناء، ستعتادين الأمر، فقط عليك بوضع فوط صحية لتحافظي على نظافة ملابسك، وأذا شعرت بألم أسفل بطنك أطلبي من أمك أن تصنع لك مشروب القرفة، سيجعلك تتحسنين. حقيقة لم أفهم شيء مما قالت، إكتفيت بالإيماء إيجابا ، في حين إبتسمت هي وقبلتني على خدي قبلة

حانية بثت في نفسي طمأنينة تكفيني لسنة بعدها..

وفي طريق العودة للمنزل، كان أبي يقود السيارة ومحمد بجانبه، بينما جلست أنا في الخلف، ليقول أبي بتردد، محاولا إخفاء خجله:

-لولو حنونتي سمعتي واش قالت لك الطبيبة، كبرتي ورجعتي امرأة، دوك لازم تعسي روحك، ومتلعبيش مع ذراري فالحومة، لازم تشرفي بابا ياك بنتي!..

هنا فقط فهمت أن الأمر أكبر بكثير من نقاط دماء، الأمر هنا يفوق قدرة فهمي

المحدودة، كان أخي ينظر من النافذة يراقب الطريق دون أن يلتفت لأبي، العادة الشهرية من طابوهات مجتمعنا، من المخجل الحديث عنها أما م ذكور العائلة..

ركن أبي السيارة على جانب الطريق وغاب لحظات وعاد بعدها حاملا كيس كبير، وما إن جلس خلف المقود حتى وضعه في حضني.

-هذا لك، ستحتاجينه كل شهر، وهناك بعض الحلويات أيضا..

خجل أبي من تسميتها، وخجلت أن من سؤاله، وما زال أخي على وضعيته ولم يرفع عينيه عن الطريق، وما زلت أنا أفكر في طريقة لطلب

مشروب القرفة من أمي دون أن أتسبب في إزعاجها.

أليست هذه مسؤولية أمي في الحقيقة؟ أليس من المفروض أن تفعل هي ما فعلته الطبيبة وأبي، أي قلب تمتلكه؟ ما ذنبي أنا ابنة الثانية عشر أصفع على ذنب لم أرتكبه؟ كم أخجل من أبي حين تمر تلك الذكرى اللعينة ببالي.

فرّت دمعة يتيمة من عيني على ما عشته في طفولتي المسلوبة

المشـــتته، إلـــى هـــذا الحـــد نفضـــت غبـــار الذكريات على صوت آذان الفجر لأنخـرط في بكاء صامت لا يسمعه إلا اللّه.

عدت للمنزل في حالة أفضل من ذي قبل، غير أن وضـــعي فـــي البيـــت لـــم يتغيـــر، دخلتـــه كغريبـــة غيـــر مرغـــوب بهـــا، لـــم تـــأت أمـــي للمستشفى لتخرجني، كما لم تهتم بعودتي سالمة لها، إكتفت بالوقوف عند باب المطبخ مربعة اليـدين رافعـة حاجبها الأيسـر، تتطلع في من الأسـفل للأعلـى، وكـأن التـي أتـت مـن الموت، غريبـة عنها، ليست إبنتها من لحمها

ودمها، إبتسمت في حسرة ألقيت التحية ودلفت لغرفتي مستندة على ذراع وليد.

بعد أيام عادت لي بعض من عافيتي، قاومت المرض وأصبحت أخدم نفسي بنفسي، كنت عالة على وليد حتى بت أخجل من طلباتي المكثفة، رغم أنه لم يشتك، غير أن شعوري أنني عديمة النفع كان يتعبني أكثر.

لا أصدق أنني لم أتجاوز الثامنة عشر، وعشت كل هذه المرارة، حياة لم يعشها أحد قبلي، حتى وإن عاشوها لن يفصحوا كما لن أفعل أنا، إنه لأمر مخجل أن تشتكي للناس من

أمك، مهما قلت ومهما تكلمت، لن يعطيك الحق أحد، ستتلقى اللوم على كلماتك الطاعنة في من تحت قدميها الجنة، وستعد أنت المذنب لا محالة، وماذا عساي أقول؟

هل سيصدق أحدا الجحيم الذي أعيشه؟ من سيصدق أن نبع الحنان، هي منبع للقسوة والتجحر والبغض؟

لا بأس أحمد الله أنني من النوع الكتوم الذي لا يشتكي همه لأحد، وإلا أصبحت أضحوكة القرن.

ماذا لو جربت أن أفتح قلبي لغريب راحل، لأي امرأة هرمة بجانبي

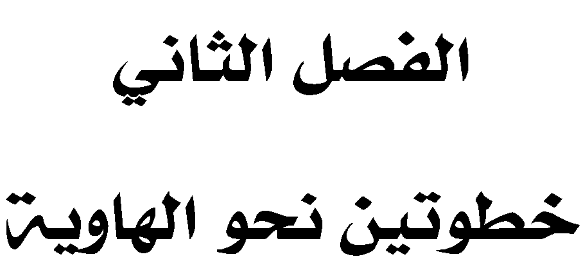
في حافلة آخر محطاتها أنزل دون أن أتلقى اللوم من الأذن التي استمعت، أهرب دون أن أتلقى كلمة واحدة تنبذ معاناتي.!

ألن يكون هذا عادل لفتاة تبتسم أغلب وقتها وقلبها ينزف؟

لا بأس فالحياة غير عادلة يكفي أنها عوضتني بأخي الغالي وليد، وأختي نجاة التي شعرت بالوحدة بعد زواجها وتركي وحيدة بين مخالب أم لا قلب لها.

وأخيراً سأجتاز شهادة البكالوريا، كلها سنة واحدة وسأتحرر، سأعمل جاهدة حتى أحصل عليها وأذهب للجامعة، سمعت أن الدراسة فيها

شيء آخر، لم أحسب حسابا للمفاجآت التي تنتظرني هذه السنة وكيف ستتحول حياتي لجحيم بعضه حلو وبعضه شيء يشبه سجن أمي الجبري أو أشد ظلماً .



الفصل الثاني

خطوتين نحو الهاوية

لا أدري كيف لكن شعور أنني طالبة في القسم النهائي، وأنني بعد أشهر سأجتاز شهادة البكالوريا، يجعلني أشعر بالفخر، وكأنني على بعد خطوات لأن أستقل إستقلالا من نوع آخر، قررت أن أصبح أنيقة أكثر، طلبت من والدي بعض النقود لأشتري ملابس تليق بطالبة في الثالثة ثانوي، الحمد للّه أنه لا يبخل عليّ بالمال كما يبخل بمشاعره.

إتفقت مع أختي نجاة على الخروج للتسوق معا، وبما أن زوجها ميسور الحال فلم تكن تبخلني بالهداها، فكل مرة نتسوق بها تشتري لي ما تقع عليه عيناي قبل أن أطلب، وكثيرا ما آثرت نفسها وفضلتني، ربما تريد لعب دور الأم؟ فشعورنا بالحرمان العاطفي، يجعلنا نرتكز على بعضنا البعض، لا أتذكر يوما أنني خرجت برفقة أمي لأحدى المحلات،

كمّ أشعر بعقدة النقص حين أرى أمهات وبناتهم في المحلات، تلك تختار لها كنزة جميلة، والأخرى واقفة على باب غرفة قياس الملابس تنتظرها، وواحدة تمازحها، وأنا

يتيمة وسط هاته المعمعة، أبتسم وقلبي يحترق، كم من المرات خفت أن أصيب إحداهن بعين حاسدة، كثيرا ما رددت بيني وبين نفسي { اللهم لا حسد } فالعين حق، وأنا لست قديسة حتى أضمن نقاء عيوني وسلامة نفسي.

دلفنا أنا ونجاة لمحلات راقية سلعها تركية وخامات قماشها من النوعية الجيدة، بعد أن أنهكنا التعب من كثرت المشي، قررت أن أعود لذلك المحل الذي لمحت فيه سروالا أعجبني وكنزة قصيرة لم ترق أختي كثيرا.

بعد أن دلفنا للداخل أصرت أختي على اللون البني الغامق للكنزة، حيث قالت بعناد طفولي:

-أنظري اللون البني جميل، أحسن من الأزرق، كما أنك لا تفضلينه كثيرا، جربي هذه وإن لم تعجبك سنغيرها..

بعد شد وجذب إنصعت لها، دلفت غرفة القياس

تطلعت لنفسي في المرآة، جسم جميل متناسق، وجه بريء أنهكه التعب النفسي، وعيون بلون الحشيش، صدقا لا أدري لما لم

أرتدي الحجاب للأن رغم أن لباسي محتشم، إلا أن شعري ما يزال حرا طليقا.

لم يهتم أحد في المنزل إن أنا تحجبت أم لا لكن شعوري أن هذا الوقت المناسب لأخفي شعري البني الفاتح، كما أمرني اللّه وديني أسعدني، سأفعل شيء يرضي اللّه، خرجت من الغرفة دون أن أجرب تلك الكنزة، وضعتها في يد أختي وقلت بنبرة واثقة وقلبي يكاد يطير من السعادة:

-لا داعي لهذه الكنزة لم أعد أريدها، أريد حجابا طويل وأنيق... قررت أن أتحجب.

ناظرتني بشك وقالت والدهشة تميز ملامح وجهها:

-أحلفي.

إنفجرت ضاحكة وأومأت برأسي مرات عديدة، لتعانقني هي بدورها، يالها من سعادة، رغم كل شيء مازال هناك صدر دافء يحتضنني وقت إحتياجي.

حصلت على حجاب جميل باللون الأسود، وآخر باللون الأزرق

الغامق هدية من أختي الغالية، ومناديل بألوان مختلفة، لأخفي شعري تحتها..

بعد عودتنا للمنزل وفي وقت العشاء والكل ملتفٌ حول المائدة، أخبرتهم نجاة بأمر إرتدائي للحجاب، لمعت عيون والدي من السعادة، بينما مازحني وليد وعانقني وقبّل جبيني، إبتسمت وقلبي يخفق من شدة الفرح، بارك لي الجميع، وكالعادة كانت هي دائما ما تطبق بإحتراف المثل القائل { خالف تعرف } وقد قالت بإستهزاء

-ما فائدة الحجاب إن كان القلب عاهرا.

تطلع والدي إليها في غضب، بينما ساد صمت مطبق على الكل، وماذا سيقولون؟ إذا فتحوا

الباب للنقاش، لن ينتهي إلا بمشكلة، أكون أنا ضحيتها..

إبتسمت بإستهزاء لحظي التعيس وقد قررت أن لا ألقي بالا لكلماتها، وما الضير أن أتلقى يوميا جرعة تسمم قلبي، ماذا سيحصل؟ طبعا لا شيئ، لا بأس تعودت.

مرّ شهرين على بداية العام الدراسي، إقترب موعد الفروض ولا أزال مشتتة بين أعمال المنزل التي لا تنتهي، وبين دراستي التي ستحدد مصير حياتي ومستقبلي، مرت فترة ضغطت فيها على نفسي ولم أعطيها حقها،

تحالفت ضدها مع الجميع، كم كنت ظالمة.

مرت فترة الإمتحانات على خير، أعترف أنني لم أغش هذه السنة ولم أطلب المساعدة من صديقاتي وقت الإمتحانات، قررت أن أنجح بمجهودي، والحمد للّه حصلت على معدل 11 بشق الأنفس وكم كانت فرحتي كبيرة، أتت العطلة على عجل، وهي بالنسبة لي سجن جبري في المنزل مع الأعمال الشاقة والشتائم بمختلف الأساليب، كل ما يهمني الأن أن أرتاح من ضغط شبح البكالوريا أسبوعا على الأقل.

في الأسبوع الثاني من عطلة الشتاء أتت أختي للمنزل لتمكث أياما معنا، قضينا يومين رائعين أحسست فيهم بالإستقرار النفسي، كنا نشكل ثلاثي رائعا أنا وهي ووليد، نسهر نتمازح ونستعيد أيام صبانا بفخر وأحيانا بحزن لنختمها بضحك لا ينتهي ..

في منتصف المزاح قال وليد :

-تلقيت إتصالا من خالي اليوم، وقد أخبرني أنه سيأتي لعزومة أمي يوم الجمعة، لا أدري لما قاطعنا، ولم يدخل منزلنا منذ سنوات، المهم أن اللّه هداه، ربما إستفاق أخيرا أنه قاطع لرحمه..

لم أشعر بنفسي إلا ودقات قلبي تكاد تصم أذناي، حتى خيل لي أنها وصلت لمسامع نجاة ووليد.

تغيرت ملامح وجهي إلى الجمود الكليّ، إعتذرت منهم بحجة نعاس، ودلفت سريري وتدثرت كليا بغطائي، وخافقي لا يزال ثائرا.

إعتذر وليد وذهب لغرفته بينما أتت أختي إليّ وقد فهمت أن تلك الذكريات المخزية طفت على السطح من جديد.

نادتني فلم أجب، هزتني لم أعرّها إهتماما، رفعت الغطاء لتجدني أبكي بصمت وقد

تبللت وسادتي، مسحت على شعري وقالت بنبرة خافتة محاولة بث الأمان في نفسي.

-لا تخافي لن يأذيك أحد ما دمت معك، ومن ستركك وأنت في قمة ضعفك، صغيرة لاتفقهين شيء، سيحميك وعودك قد إشتدّ، مما أنت

خائفة ولما هذه الدموع عزيزتي.

لم أتمالك نفسي لأرتمي في حضنها وشهقاتي تسبق عبراتي، كما يسبق البرق الرعد، وماذا بيدي أن أفعل وأنا العبد الضعيف الذي لا سند له في هذه الحياة؟

-سبحان من يغير العبد من حال إلى حال في ثوانٍ معدودات، قبل قليلٌ كنت أضحك ملء فمي والآن أبكي وكأن عزيز عليّ فارق الحياة، قلت وقد قاربت أحبالي الصوتية على الإنقطاع:

-تحرش بي، وكاد....

لم أتخيل يوما أن خالي سيتحرش بي، يعلم جيدا أنني لن أشكوه لأحد حتى لو قام بإغتصابي، لأن الجبن صفة متأصلة بي.....

خجلا لم أستطع أن أكمل، ختمت حفلة البكاء ونجاة تربت على شعري محاولة

التخفيف، لكن عبثا فتح الجرح، ووضع فوقه الملح فمن سيمنع الألم من ولوج فؤادي؟

راضية أنا بقدري، وراضية بكره من أنجبتني، لكني لن أرضى بأن أجالسه في مكان واحد وأنا التي لا أكره شخصا في العالم بقدر كرهي له، أذاقه اللّه من الكأس الذي أجبرني التجرع منها.

ذلك اليوم كنت في بيت جدي الذي لا يبعد عنّ منزلنا كثيرا، كالعادة تجتمع خالاتي مع أولادهم في الإجازات، وكنا أنذاك في الإجازة نصف سنوية ربيع 2003، كنت ألهو مع ذكور وإناث العائلة، إلى أن

أنهكنا التعب، تناولنا غدائنا ودلفنا الغرفة لنكمل لعبنا، دخل خالي بعدنا بدقائق وناداني ذهبت معه بحسن نية وكم كنت أحبه، كان رائعا معي ومع نجاة حتى ذلك اليوم، قال أننا سنذهب لشراء الحلوة للجميع، صدقت وذهبت معه، خرجنا للشارع ومنه إلى دكانٍ في الناصية المقابلة للمنزل، إشترينا كمية لا بأس بها من الحلويات، وعدنا..

قال أنه يحبني أكثر من الكل، وأنني مميزة، وأن قسمتي من الحلويات أكثر منهم، وكم كانت سعادتي لا توصف، لا أحظى عادة

بإهتمام كهذا، شعور لا يفهمه إلا من يعاني من الحرمان العاطفي.

أمسكني من يدي بحرص شديد، وذهبت معه إلى غرفته، لأخذ قسمة أكبر من الكل، وعندما دلفنا للداخل، جلس على طرف سريره وأجلسني في حجره، ووضع كيس الحلويات على الجانب.

قلت بلهفة :

-أعطني قسمتي خالي.

إبتسم بخبث وكشر عن أنيابه، وساومني وما شدة جهلي أنذاك.

-أمم حسنا هي كلها لك، لا أحد يستحقها إلا لمياء لأنها أحسن منهم جميعا.

-كيف ذلك وهم!

قلت بتساؤل بينما عانقني هو وقال بأنفاس لاهثة..

-تعلمين أن خالك يحبك أليس كذلك.؟

شعرت أن بالأمر خطب ما...

شعرت أنني على شفى خطوتين نحو الهاوية، فما يفعله بي الأن ليس بريئا مطلقا، حاولت إبعاده لكن قبضته أحكمت وثاقي، ردّد مرار أن الحلوى كلها لي، لكنني لم أعد أريدها،

لا أريد أن أكون مميزة عن الكل، لا أريد أن تلمسني كما تفعل الأن، نيتك سيئة، قاومت لكن ماذا سأفعل وأنا بين يديه كفأر حديث الولادة بين أنياب قط متشرد.

من غير حول لي ولا قوة، فتح الباب ودلفت أمي، لتتفاجئ بمنظري وأنا نصف عارية، لطمت وجهها مرات عديدة، وإتجهت صوبنا كثور هائج لمح قطعة القماش الحمراء في حلبة تعج بالمتفرجين، غير أن خالي إستغل الفرصة وأخذني غدر.

صفعتني عدة مرات، وألبستني ما نزع عني جبرا، وطردتني من الغرفة، وأغلقت الباب،

ولا أدري بعدها ما حدث بينهما، إلا أنها عادت بي وبنجاة للمنزل يومها، في حين حدثت أختي بالتفصيل عما حدث..

ما إن دلفنا منزلنا حتى أخذتني أمي إلى غرفتها وقالت بالحرف.

-إياك وأن تقولي لأحد ما حدث اليوم، وإياك أن تتركي أي كان يفعل بك ما فعله ذلك الحقير، أقسم أنني سأقتلك لو سمعت ما حدث على لسان أحدٍ..

قلت بتردد ودموعي تنساب.

-لكنني أخبرت نجاة...

صفعة تلوى الأخرى، وجع تلوى الوجع وما ذنبي أنا؟

نادت بصوت متقطع ودموعها كشلال لا ينقطع ماؤه، وهي الصخرة التي لا شعور لها، بكتّ ذلك اليوم ولطمت وجهها حتى إزرق لونه.

-نجاة.....

دلفت أختي على عجل، ووجها مسّود من الخوف

-إذا سردت ما حدث اليوم على والدك أو أخوتك أو أي كان تيقني أنك ستموتين على يدي...

تيبست ملامح أختي، أومأت إيجابا كما فعلت أنا وخرجنا من الغرفة نبكي على أمرّ لا ذنب لنا فيه...

***

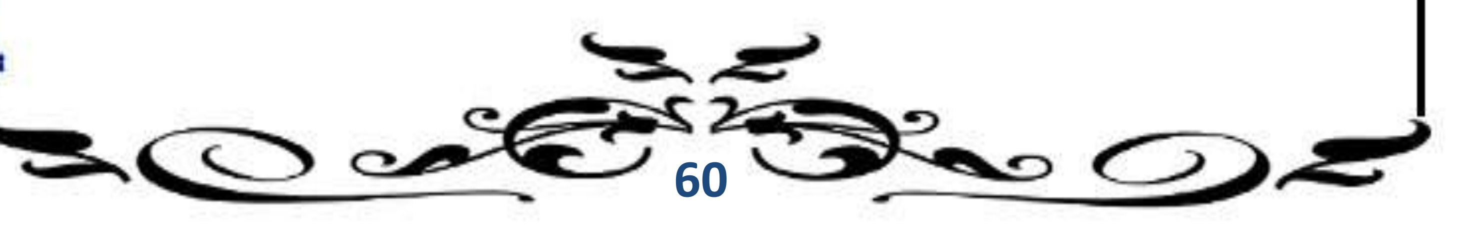
ما أزال بين يدي نجاة وفي حضنها، يدها على شعري وقلبي على قلبها، ولا أحد لنا إلا بعضنا البعض، ومن سيشعر بكمّ الصدمات التي تتالت على رأسي واحدة تلوى الواحدة ، وكم كنت ساذجة، وكيف لي أن أفهم أنذاك أن فعلا شنيعا كالذي تعرضت له، يدرج تحت إسم التحرشات الجنسية، كل ما عرفته كان بفطرتي البريئة " ما تفعله معي عيب يا خال"

هكذا حدثت نفسي وأنا بين أنيابه، وكيف له أن يقابلني الأن؟ بأي وجه سيتطلع إليّ؟

منذ تلك الحادثة قيل أنه ذهب للعمل في الصحراء الجزائرية، ولم تعد أخباره تصلنا، وبعد أن كبرت وصرت إمرأة عادّ وعادت معه تلك المأساة لتظهر على السطح، وأي فاجعة "خال" قارب على فعل ما حرم اللّه بإبنة أخته.

جفت دموعي بعد أن تيقنت أنها لن تفيدني، بل ستزيد من وجع الرأس فقط، مازحتني نجاة قائلة..

-فرغتي قلبك دوك، ريحتي؟



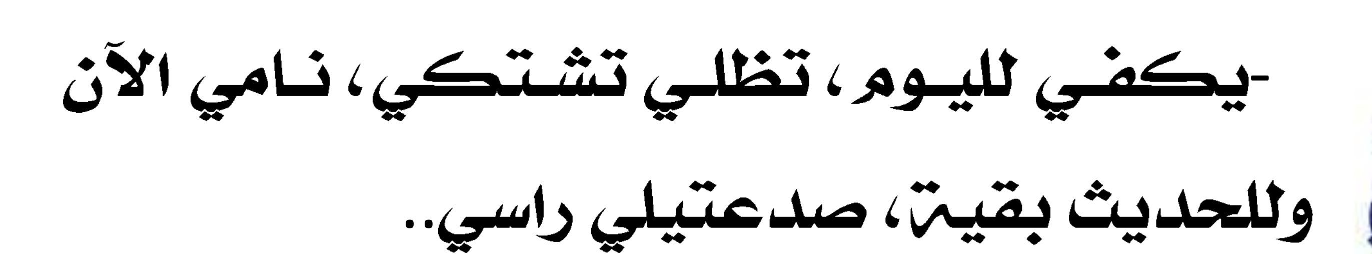
إبتسمت بأسى وقلت دون أن أنظر إلى عينيها.

-كلما تمرّ تلك الذكرى ببالي، أتمنى أن يفعل به ما فعل بي، كيف سيعود الآن، كيف سيدخل بيتنا وهو يعلم أن ما فعل ليس بالأمر

الهين؟ كيف لأمي أن تسامحه؟

كل شيء يسير بالعكس في حياتي، وما إن أخرج من مصيبة حتى أجد نفسي في أخرى دون أن أكون المذنبة..

ربتت على كتفي وساعدتني على الإستلقاء في سريري، وقالت بنفاذ صبر.



-يكفي لليوم، تظلي تشتكي، نامي الآن وللحديث بقية، صدعتيلي راسي..

إنفجرت ضاحكة وعانقت وسادتي، وقلت..

-لولاكي ووليد، لكنت الأن في مصحة نفسية أتعالج.

حملت وسادة كانت أمامها ووضعتها على وجهي وقالت:

-لن تجني ولن يحصل لك شيء، أن من ستفقد عقلها هيا نامي الآن، الحمل أتعبني وما تبقى أكمليه أنت..

***

كم كان الأسبوع طويلا، وكم تمنيت ألا يأتي يوم الجمعة إطلاقا، الإنتظار يجعل المرء يعيش حالة من الهيجان النفسي، عادت تلك الذكريات على شكل كوابيس تأرق نومي كل ليلة، وكم من مرة أيقضتني نجاة وأنا أئن دون وعي مني، وكم من مرة صرخت أن " عيب يا خال ما تفعله بي " وكيف لي أن أتناسى ما حصل؟ ماذا أفعل حتى أخرج تلك الحادثة المشؤومة من تفكيري، وذكرياتي؟

ها قد أتى يوم الجمعة، وتلاشت قواي وشُل تفكيري، قيل أنه آتي من السفر على بيتنا مباشرة، لم يتبقى سوى ثلاث ساعات لموعد



الغداء، قيل أنه سيصل بعد ساعتين على الأكثر، مرت ضعف الوقت ولم يصل، تمنيت أن لا يأتي ولم أكن أعلم أن دعوتي قبلت عند اللّه، ربما في ساعة مباركة من ذلك اليوم صعدت دعواتي مع دعوات العباد الصالحين، وكان لي ما أردت وأكثر..

حادث في الطّريق نقل على إثره للمستشفى، لبث هناك أسبوعا، ليخرج بعدها على عكازات وعرج دائم في قدمه اليسرى، وهذه أكبر هدية من اللّه قدمت لي، وأي إنتقام، إنتقام العزيز الجبار لعبد لا يملك من أمره حيلة، لم يخذلني ربي، ولم يفلت يدي.

عاد خالي بطالا لا عمل له وكيف سيعمل وهو ضرير، ولم يدخل منزلنا بعدها قطّ، زارته أمي في منزل جدي، والكل قام بواجب الزيارة إلا أنا..

وعدت نفسي أنني سأغادر المنزل في أول فرصة تتاح لي، وها قد أتت على طبق من ذهب، رغم كره والدتي لي، إلا أنها مدحتني أمام أهل يوسف، الذي تقدم لخطبتي ما إن رآني أخرج من بيتنا ذلك اليوم متجهة لدروس الدعم، وقد كان ينتظر أخي محمد أمام منزلنا، كان يكبرني بتسع سنوات، وفي أول أسبوع للدراسة بعد إنتهاء الإجازة لبست

خاتم الخطوبة، وكم كانت فرحتي به لا تقدر، إنه منقذي، ليس فارس أحلامي لكنه حتما من سينقذني من الساحرة الشريرة التي عاثت في قلبي فسادا.

شهر بالتمام قرأت فاتحتي، وأصبحت شرعا زوجة ليوسف، غير أن أبي لم يرضى أن أعقد مدنيا إلا أياما قبيل حفل الزفاف، وهذا أحسن قرار إتخذه في حياتي.

كانت أحاديثي معه باردة كوننا غرباء ولا أرتاح للحديث مع غريب،

مع الوقت تقربت منه وتقرب مني، وجدت به من الاهتمام ما فقدت، وإلتهمت ما إستطعت، كيتيمة لم ترى والديها.

بما أنني لم تكن لي علاقات قبل مع الرجال، كنت أجهل كيفية التعامل معه، وكم وقف بجانبي ودعمني نفسيا، وكم كنت جاهلة وساذجة أشتكي له ظلم أمي وجبروت إخوتي، وصمت أبي عن أذاهم، كان يستمع إلى كأنني آخر شخص على وجه الأرض ينصت بإهتمام بالغ، وبما أن نقطة ضعفي أصبحت معروفة لديه، أصبح نسخة عنهم حين لا نتفق، فإذلالي أصبح أمرا لابد منه، ما

بقي عن أهلي أكمله هو، أمسك الشعلة حتى قبل أن يضعوها هم، وبعد شهور قليلة من قراءة فاتحتي أردت فسخها، وقد تزامنت مع فترة إمتحان البكالوريا، مما زاد الضغط النفسي عليّ، وقف الكل ضدي، وسمعت من الشتائم مالا تتحمله أذن، وماذا بعد!

لا شيء، رضخت لهم حتى تمرّ فترة الإمتحانات على خير، وقاطعت يوسف وإمتنعت عن الحديث إليه، وهذا ما قلل من ضغوطي النفسية، إلا أن آمي لم تتركني وشأني حيث إدعت المرض ونامت أسبوعا في الفراش، وتركت مسؤولية بيت كامل على عاتقي، من

بسني يعاملون معاملة خاصة، فترة المراهقة ليست بالفترة الهينة، كم من مرة فكرت بإنهاء حياتي، والخلاص من ذلك الجحيم، كم من مرة أردت الموت، إلا أن الموت أبى أن يأتي وتركني بين براثن بشر لا يرحمون».

وكم كنت غبية حين أقدمت على الإنتحار ذلك اليوم، كنت لأكون من أهل جهنم لا أنا عشت دنياي كما أريد ولا آخرتي، أحمد اللّه أن نجاني وأعادني للحياة.

مرّ أسبوع من أسوء الأيام في حياتي أبكي ليلا نهارا، لم أراجع كفاية ولست جاهزة، ومسؤولية بيت وعائلة فوق رأسي وخطيب لا

يلبث يلحقني في كل مكان يلقي باللوم

عليّ مهددا بفصلي من الدراسة، وهذا

ما كان ينقص حياتي لتستقرّ...



الفصل الثالث

الهروب من الجحيم ليس حلّ

نصحتني نجاة ألا أتسرع، لكنني تمسكت بقرار الهروب من جحيم عائلتي، الهروب من أمي تحديدا..

قالت ودموعها على وجنيتها ويديها تمسكان بكفي تضغط عليه بقوة:

-واللّه لو وافقت على زيجة لست مقتنعة بها ستندمين وستكونين الخاسرة الوحيدة، هروبك من المنزل بالزواج ليس حلاً، لا تقيسي تجربتي بتجربتك، أنت لا تزالين



صغيرة، ولا يزال المستقبل أمامك، كيف لك أن تفقدي صبرك بعد كل ما تحملتي، أعرفك قوية ولا تستسلمين بسهولة، تحملت كل هذا الوقت لتحطمي صبرك بزواج سيقيد حريتك ومستقبلك، أنت على بعد خطوات من تحقيق حلمك ودخول الجامعة ودراسة التخصص الذي تحبين، كيف لك أن تضحي بكل هذا؟ ومن أجل ماذا من أجل رجل !

صدقا كانت الوحيدة التي تفكر في مصلحتي دون أن يكون لها نية خبيثة، لماذا لم أجلس وحيدة أفكر في كلامها، لغيت

عقلي وتعمدت عدم التفكير في الأمر، كل ما كان يهمني هو الخروج من ذلك المنزل، ويوسف لم يكن سيئا قطّ، كان طويل وجسمة رياضي، عضلاته بارزة، ولباسه أنيق، أبيض وشعره أسود يشبه في إنسداله ونعومته شعر الهنود ، نظراته واثقة ويبدو شخصا طيب القلب أيضا ، وهذا ما ينقصني حتى أتعافى من جميع العقد التي زرعت بنفسي طيلة العشرين سنة الماضية.

لم أكن أدري أنه سيكون دائي ودوائي في نفس الوقت، وكأنه مصاب

بإنفصام شخصية، أو ربما أنا من كنت مصابة به، وهو السّليم المعافى.

قالت نجاة بعد أن هزتني بعنف، وعيناها مصوبتان نحوي.

-تذكرين ما عانيت أنا أيضا.!

تذكرين هذا الحرق؟

رفعت طرف البيجامة عن بطنها وأشارت إلى جلد بطنها المنكمش.

-تعرفين أن أيوب سألني يوم الدخلة عنه واضطررت أن أكذب، لم أستطع أن أقول أن أمي التي زفتني اليوم ضاحكة، تقبل اليدين

والرأس هي نفسها من أحرقتني حين كنت طفلة، تذكرين يوم زفافي حين عانقتني تبكي وشهقاتها تصمّ الأذان؟ ماذا لو قلت أن تلك الباكية هي من أحرقتني، وكسرت لي أنفي أيضا، هل كان سيصدق؟

لم أتزوج أيوب لأهرب من المنزل كما تفعلين الأن، ولن أسمح لك بالزواج ونيتك الهروب من واقع ربما تجدين نفسه عند زوجك، من يضمن لك أن يوسف سيهتم بك وينسيك، لماذا تصرين على الموافقة ونيتك لا أن تبني بيتا وتحضي بعائلة، نيتك فاسدة وزواجك هذا لن يدوم، تريثي قليلا وفكري،

الأمر ليس هين، وأنا لن أقبل عليك واقعا أسوء مما عشناه، تستحقين السعادة حبيبتي، سيعوضك الله لكن نيتك هذه ليست سليمة مطلقا، وزواجك هذا لن يكون سعيدا.

صحيح أن نيتي كانت الهروب من واقعي لا غير، لا يوسف ولا غيره سأتزوجه لأنني أحبه، ربما لن أعرف الحب أبدا، لكنني سأسعى جاهدة حتى أنجب الكثير من البنات، وسأسعى لأن أقدم لهم كل الحب والعاطفة حتى أعوض نفسي عن تلك المشاعر التي فقدتها ولم أشعر بها يوما، لا بأس كما يقال

(راحت عليا أنا) لكن بناتي سيعشن واقعا أفضل، سيتنعمن بالحنان الذي فقدته، كما سيحضين بمنزل هادئ لا مشاكل تغزوه ولا شجارات دائمة، حتى لو إضطررت أن أمثل أمام يوسف وأتنازل عن حقي، وكم تنازلت عن حقوقي في منزل والدي حتى أتفادى مشاكلا لن تنتهي، وماذا سيحصل لو أنني وافقت يوسف؟

لا شيء كلها شهور وسأتزوج وأهرب من منزل لا مكان لي به، لا أنتمي إليه ولا أهل حقيقين ولا إخوة أرتكز عليهم، شخصان

فقط سأفتقدهم نجاة ووليد. أما الباقي فلا عاطفة تربطني بهم سوى الإسم.

محمد أخي الكبير لم يكن سوى أول إسم في دفتر العائلة ورضا بعده، تفصلني عنهم نجاة بصفحة كما يفصلني عنهم منزل بجدران، ورابطة أخوة بمشاعر، لا أملك منهم سوى الإسم، أخوة لي، لكن الغريب أفضل منهم، كثيرا ما وقفوا بصف تلك الأفعى ضدي، ونادرا ما سألو عني حين أعتكف في غرفتي هروبا من واقع تجرعت مرارته حتى تخمت.

وافقت على يوسف وبعد شهر قرأت فاتحتي، وتغيرت حياتي وأضفت هما آخر لقائمة همومي.

***

كانت جارتنا زهراء تتقرب مني بداعي المصلحة، لم أكن على علمٍ أنها على علاقة برضا، وكيف لي أن أتخيل أخي المعقد الصّامت يحب، أو في علاقة غرامية، وهو الذي أبرحني ضربا وأنا بنت الرابعة عشرة حين بلغه أنني أحب صديقا يدرس معي.

لو وجدت حنانا وعطفا وإحتواءً منكم يا أخي لما إرتكزت على حب طفولي، ولو

وجدت فيكم ماينقصني لما بحثت عنه خارجاً، لم تكن أخاً صالحا. وكنت ساذجة أبحث عما أحتاجه خارجا، ولو كنت مكتفية بحبكم وعطفكم لما رأيت الحب والعطف في عيون الكل إلا أنتم، واللّه كان أخا ورجلا أكثر منكم، يومها أبرحتني ضربا وساعدك محمدا في مهمتك، وبعد أسبوع مكثته بالبيت أتعافى من الجروح والكدمات تكرمتم عليّ بالعفو، وسمحتم لي بالعودة لمقاعد الدراسة، ووضعتم لي حرسا في كل مكان يراقبون حركاتي وسكناتي، ومنعتم عني صديقي،

وحرمتموني منه، ليلقى حتفه بعدها في حادث درّاجة، وتيتمت يومها للمرة الأولى، فقد الأخ الحقيقي، بينما أنتم لم تكونو سوى أسماء في دفتر تفصلني عنكم صفحات، أما العاطفة فماتت مع الذي حرمتموني منه.

كانت زهراء تسألني عن كل كبيرة وصغيرة في المنزل وبحكم أنها تكبرني بثلاث سنوات، فكانت تسأل عن طبيعة العلاقة بيني وبين إخوتي في المنزل وبيني وبين أمي، وكل همها أن تجمع أكبر قدر من المعلومات عن البيت الذي ستسكنه، وعن الشخص الذي

سترتبط به، لم يكن رضا من الأشخاص الذين يسرحون ويمرحون في الشوارع ولا حتى في الحي، فقد كانت معرفتها به سطحية، تراه يدخل المنزل ويخرجه، ولا علاقة تربطه بأولاد الحي سوى إلقاء التحية، كان منغلقا على نفسه وليس إجتماعيا، وكلامه قليل، لا نأخذ منه حقا ولا باطلا، عكس محمد إجتماعي بالفطرة، وعلاقته بأولاد الحي جيدة، والكل يحترمه ويحبه، وهذا ما كان يجعلني أمشي كعقارب الساعة، أتفادى المشاكل والشبهات حتى لا تصل أخباري إليه

فيبرحنــي ضــربا حتــى ولــو كانــت الأخبــار كاذبة، كانت أسئلة زهراء غبية.

-هـل يعـاملكم رضـا معاملـة حسـنة! هـل هـو بخيل؟ هل يصرف على المنزل؟ هل يستمع إلى أمك ويستشيرها في أموره الخاصة؟ وهل....

كنــت أضــحك علــى أســئلتها وأجيــب بمــا يتكــرم بــه غبــائي علــيّ، كنــت أعــرف حــق المعرفــة أن أمــي تقــدس ذكــور العائلــة وطلبـاتهم أوامـر عنـدها، لكـن كـذبي عليهـا بهـذه الطريقـة سـيجعلني أكبـر ظالمـة لهـا، كنت أجيب بالنفيّ حتـى شكّت أننـي أحـاول التملص من الإجابة..

سألتها بطريقة مباشرة:

-هل أنت على علاقة برضا؟

بعد كل تلك الأسئلة التي فضحتها من الأول، إدعت الخجل وإحمرّ وجهها وقالت بتلعثم:

-تقريبا ليست علاقة بمعنى العلاقات التي تقصدينها، لكنه بعث لي بمرسول مع أخت صديقٍ مفاده أنه يريد التقدم لخطبتي، وبما أنني لا أعرف من أسأل عنه قررت سؤالك أنت، وأعلم أنك لن تخفي عني شيئا يخصه فهذا زواج وليس لعب.

إنفجرت ضاحكة على كلماتها وقلت بأنفاس متقطعة..

-لو كان يريد الزواج لعرض الأمر على أمي قبلا، أنت لا تعرفين الرجال، كما قال اللّه في كتابه العزيز: { وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا اَلبيُوتَ مِنْ ظَهُورِهاَ وَلكِنْ اَلبِرَّ مَنْ إتَّقَى وَآتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أبْوَابِهآ وإتَّقُوا اللّه لَعَلّكُمْ تُفْلِحُونَ(189) } البقرة.

لو أراد الزواج كما تقولين لتقدم لكِ رسميا لا أن يبعث لك بمرسول، كفاك غباءً حتى أن أخي ليس من النوع الذي يربط علاقات مع

البنـات، ولـو أراد الـزواج لإنتشـر الخبـر فـي المنزل.

لا أدري لما شعرت أن زهـراء شـكّت بكلامي، وظنـت أننـي أتهـرب من الإجابـة، غيـر أن هـذه هي الحقيقة، ولـم يطـرح الأمـر علـى أمـي ولـم يلمح أنه يريـد الـزواج، وهـذا ما حصـل، قبلت زهـراء بعلاقـة سـطحية تـربطهم وظنـت أنهـا بهذا الفعل ستتعرف عليه أكثر قبل أن تعطي موافقتها عليه حين يأتيها خاطبا وهـذا ما لـم يحصل مطلقا.

أخـي الخجـول يحـدث فتـاة فـي الهـاتف لـيلا يتبـادلان كلمـات الغـزل وأحلامـا ورديـة، هـو

نفسه من كان يتنصت على باب غرفتي، يتأكد إن كنت أتحدث هاتفيا أم لا، وأنا التي تنام كالصّريع من التعب، أنا التي تحمل مسؤولية بيت كاملة على عاتقها، وكل هذا لم يشفع لي عندهم ، ولم يتكرم أحدهم بقول " شكرا لك تعبتي اليوم" وكأنني خادمة أتلقى أجرا على خدماتي دون كلمة تمسح عني إرهاق العمل.

بعد ستّ أشهر جائتني زهراء باكية تشتكي خيانة رضا لها، وماذا عساي أفعل لك وأنت من بعت نفسك بالرخيس، إنتهت مدة صلاحيتك والأن أخي الذي لا علاقة له

بالنساء يريد تجربة كل واحدة أخرى غيرك وتجريب العديد من العقليات، وإكتساب خبرة أكبر وكنت أول ضحية عبَر عليها، وربما طالت علاقتك به، ستة أشهر ليست بالفترة القصيرة، ربما عمر علاقاته القادمة سيكون أقصر، حتى يتسنى له الوقت لإكتساب لدراسة جنس حواء.

أخي الذي كان يمتلك سروالين وقميصين أصبحت خزانته تكتظ بالملابس من ماركات عالمية، إنها لوازم جذب للفتيات فكل ما يهمهم أنه لباسه الماركة، ورائحة عطره النفاثة، ومن هنا تغير أخي وأصبح

أكثر إنفتاحا، بينما كان مؤيدا قرار زواجي من يوسف، وعندما قررت أن أفسخ الخطوبة جلس معي كأي أخ وأراد أن يلعب دور الناصح، ذلك الدور الذي لم يلعبه طيلة العشرين سنة الماضية، مثله جيّدا الأن، أراد التخلص من مسؤوليتي، وهو الذي لم يهتم لي يوما..

-أخبريني ماذا حصل مع يوسف حتى تريدين فسخ الخطوبة؟!

-هل يعقل أن أخبرك ؟

كان لسان حالي يقول بينما عيناي تهربان من نظراته المتفحصة..

كرّر سؤاله وإنتظر الإجابة، فسردّت له ما حصل بالضبط وهنا كان منعرجا جيدا في حياتي تغيرت معه تصرفات رضا إتجاهي، وأصبح أكثر قربا مني، وأصبح لي سندين في ذلك البيت بدل الواحد، وكل الفضل في علاقاته المتعددة بالنساء، لو بقي منغلقا على نفسه لما تغيرت معاملته لي ولما أصبح له شعور وإحساس تجاه معاناتي.

قلت ودموعي تغشي مجال رؤيتي:

-كنت أظنه قريبا مني منحني إهتماما فقدته داخل أسوار منزلي، أعطاني أمانا لم تقدمه لي لا أنت ولا محمد، بدأت أشتكي له

همي وأفرغ قلبي، وكان مستمعا جيدا، غير أن المستمع خان وعايرني بما أعانيه، تخيل قال أنني أستحق ما يحصل معي لأنني عنيدة، ولو أنني كنت جيدة لما فعتلم بي ما تفعلون، قال أن أمي فشلت في تربتي وأنا التي لم أحظى بإبتسامة منها، عايرني بواقعي، وقال أنني أستحق أكثر من هذا.

خان المستمع يا أخي، وكيف لا يخون وقد خنت نفسي أولا وإشتكيت همي له، كيف لا ينظم للكل وأنا التي عاهدت نفسي على السكوت وترك مأساتي بيني وبين نفسي، فكما يقال { البيوت أسرار} وأنا من فضحت

نفسي وإشتكيت همي، وجازاني بأن عايرني أنني أستحق ما يحصل معي، وهذا ما أستحقه فعلا، خنت صمتي، وخان من فتحت له قلبها.

لم يقل شيئا، صمت مطبق ظننت أنني أخطأت بالحديث عن أسرار منزلنا لغريب، وتأكدت أن رضا سيثور بوجهي، غير أن الواقع كان معاكسا، جذبني نحوه بقوة وحضنني بعنف، وجدت رأسي على صدره ويديه تشد الخناق عليّ، وما أغربه من شعور، لم أحصل على حضن كهذا من أخوتي الكبار، بإستثناء وليد الذي يصغرني بسنة، شعور جديد لم أختبره من قبل، إستسلمت بين يدي أخي

لويزة بداوي

وبكيت حتى بللّت ملابسه بعبراتي التي أبتّ التوقف، والتي لم تنفذ منذ ولادتي، وأنا المحتارة أن كيف لها ألاّ تجف وكأنها نهرٌ جاري.

ربتّ على كتفي ومسح على شعري، وقبّلَ جبيني، شعرت أن قلبه يرقص حزنا لحالتي، دقات خافقه صمّت أذنايّ، لا أدري كم من الوقت بقينا هكذا؟! إلا أنني تمنيت أن يتوقف الزمن وأنا بين يدي من تربطني به صلة الدّم، وتفصلني عنه جدران منزل فقط.

قال بنبرة متشنجة ودموعه تنساب، تلك أوّل مرة أرى دموع رضا ، الذي كنت أظنه جبلا لا يأثر به أي شيئا كان:

-آسف حبيبتي، آسف لكل ما عانيته، ولكل دمعة نزلت من عينيك الجميلتين، آسفة لأنني بعيد عنك ولم أوفيك حقك كما يجب، كنت خير البنت البارة، لم تأتي لنا بمشاكل من الخارج ولم تضعي رأسنا في التراب، كل ما مررّتِ به ولا تزالين على فطرتك الطيبة، تعرفين عقلية أمّك، نحن من أخطأنا حين تركناها تفعل بك ما تفعل دوما دون أن نتصدى لها ولظلمها.

تشبثت بقميصة أكثر وإرتفعت شهقاتي....

متى كنتم لتشعرو بما عانيت؟ متى وقفتم بجانبي ونصرتموني؟ متى تصديتم لظلم من أنجبتني؟ وكم من مرة ضربتموني على ذنب لم أرتكبه، سوى أنه

تهمة ملفقة من أمكم التي لا ترفضون لها طلبا..

كنت على هامش حياتكم وسأبقى، بعد ماذا إستفقت اليوم !

بعد أن إنتهت حياتي في هذا المنزل اللعين، شعرت بالذنب بعدما قضيت أسوء أيامي معكم، كيف لك الأن أن تطلب العفو، من

سيعوضني عما عشته وقاسيته طيلة عشرون سنة مرت؟

كل ما سبق قوله كان حديث نفس لا أكثر، بينما قلت صراحة ووجهي مدفون في صدرة:

-لا بأس لم تتأخر، لا يزال هناك أشهر لأعيشها معكم وبعدها سأتزوج وأغادر منزلكم، وأعفيكم من مسؤوليتي، لا بأس كل ما مرّ كان قضاء وقدر يا أخي .

مسّد على شعري وقال بصوت رخيم لم أعهده منه:

-أششش لابأس لا تحزني، أنا هنا بجانبك، لن يمسك سوء وأنا على قيد الحياة. يكفي حبيبتي.

"بعد ماذا أشفقت؟ بعد ماذا عدّت؟ وأي عمر ستعوضه يا أخي؟ لم يتبقى الكثير"..

لا أريد شفقة صدقا، لا أريد وعودا لن تستطيع تحقيقها، لا أريد صدرا أبكي عليه؟ يكفي أنني لن أشتكي، لا أريد شيئا فات الأوان.

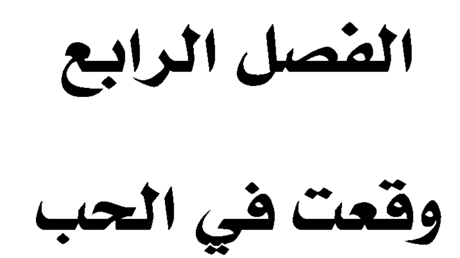
عاهدني أن حياتي ستتغير وسيكون السند، وسيقف مع قراري بخصوص زواجي من يوسف، لكنني لم أعد أريد شيئا من طرفكم،

سـأقف بجانـب نفسـي كمـا وقفـت طيلـة مكوثي في منـزلكم كغريبـة، ولـن أحتـاج دعمكم وشـفقتكم، يكفي أنـك تكلمت وهـذا مـا يهمنـي، آسـفة يـا أخـي لكنـك لـن تستطيع تعويضـي ولـو مثقـال جنـاح بعوضـة، فدور الأخ الحاني لا يليق بك بعدما مات كل شيء جميل بي، وكيف لقلب ميت أن يحيا؟

لا بـأس فالحيـاة مفاجـأت ومفاجأتـك اليـوم كانت لا تصدق، غير أنه شعور لحظي بالأمان سيزول ما إن تخرج من الغرفة، وهـذا مـا حصل فعلا، شفقتك كانت عابرة، صدقا شعوري لا



يكـذب ولـم يخيـب أملـي يومـا ، عـدت بعـدها رضا الذي أعرفه ولم يتغير شيء..



الفصل الرابع

وقعت في الحب

أجمل خبر أفرح قلبي وأزال عني تعب سنة كاملة، أصبحت خالة لأول مرة، شعور لا يوصف، لم أستطع إكمال اليوم في الثانوية، خرجت في منتصف الدوام وقلبي يقفز من الفرح، إتجهت صوب المستشفى وعقلي يرسم ملامح مختلفة لإبنة أختي، هل هي سمراء! لا ستكون ذات بشرة بيضاء كأمها، ستأخذ عيناي الخضراوتان، نجاة طيلة فترة وحمها كانت تصر أن تكون إبنتها ذات عيون

خضراء فلم تتوانا في النظر إليّ تلك الفترة بالذات.

وصلت أخيرا إنتظرت موعد دخول الزوار وكم كان الإنتظار مرهقا مميتا للأعصاب، بعد حوالي النصف ساعة بدأ الناس يتزاحمون نحو الداخل، تبعت ذلك الحشد الغفير، متمنية أن أقطع تلك المسافة في خطوتين، أو أطير كعصفور طليق حيث أختي، لم أن أعرف أين تقع مصلحة الولادة والمولودين حديثا، وكم كان السؤال مرهقا.

وصلت وجلّت في مصلحة الولادة، أرى في وجه كل إمرأة أختي الغالية، ألمح في كل رضيع،

شيئا مني، غير أن كل هاذا الجري لم يكن ذا نتيجة، تأزمت حالة إبنة أختي، وأخذت على الحاضنة، لتلقي الأكسجين لازم للحفاظ على حياتها، مريضة ربو وما ذنبها وهي بنت سويعات قليلة، يبدو أن سلالتنا ملعونة، وكل من تجري في عروقه هذه الدماء سيكون قدره أسود كسواد الليل..

بعدما يئست من إيجادها إتصلت هاتفيا بها، أرشدتني إلى مكانها والذي عثرت عليه بشق الأنفس، وجدتها ها هناك واقفة ملتصقة بزجاج إحدى الغرف تتطلع إلى صغيرتها ودموعها تنزل في صمت.

إتجهت صوبها بخفة لا أدري كم ثانية لزمتني حتى وصلت لها، عانقتها وبكت في حضني، لتقول هي بصوت خافت، وكأنها تخشى إيقاظ فلذة كبدها من نومتها تلك..

-ما ذنبها حتى تكون مريضة ربو؟ ما ذنبها قولي باللّه عليك؟

ربتتُ على كتفها في حنو ومن لنا غير بعضنا وقت المصائب، عانقتها وقلت بثقة.

-من خلقها وأتى بها للحياة قادرٌ على شفاءها، ما بك لم أعهدك هكذا قليلة ثقة باللّه، أحمدي اللّه أنها أتت من دون عاهة أو أمراض أخرى..

بعد مدة إقتنعت وعادت لرشدها، ومسحت عبراتها، ولم يمضى سوى وقت قصير ودلفت أمي وأخي، لحقهم أبي وأيوب بعدها.

لم أصدق عيناي حين عانقت أمي نجاة وبكت في حضنها، وكم من الوقت وأنا أحاول إقناعها أن ترضى بقدر اللّه لتأتي هي التي لم تعانقها سوى يوم زفافها لتجعلها تبكي مرة أخرى، وكم هي غريبة الحياة، وقفت بعيدا أتطلع إلى ذلك المشهد الدرامي، وأنا التي لم أحظى بحضن كا الذي أراه الأن ولو في أحلامي، لم أشعر بالغيرة قط من أختي، ولن

أشعر بها تجاهها ولو أخذت ضعف نصيب الإهتمام من تلك الجافية.

بعد مدّة عادت أختي لغرفتها بينما أكملت الرضيعة يومها في الحضانة، وبعد ثلاث أيام خرجت من المستشفى، ومن العجائب التي لن يصدقها عقل، أصرت أمي أن تأتي لمنزلنا مباشرة، وكم كانت دهشتنا كبيرة.

لم يبقى كثيرا لموعد إمتحان البكالوريا، وأختي تقيم في بيتنا تقضي فترة النفاس تحت رعاية أمي، أقسم أنه شيء لم أستوعبه، تغيرت معاملة والدتي مع نجاة تغيرا لا يتقبله عقل عاقلٍ، وكأن التي ربتها منذ ولادتها

والتي قست عليها وجعلتها تكره البيت الذي تنتمي إليه ليست هي نفسها التي تحاول شراء رضاها بكل الطرق، تستميل قلبها وترجعو عفوها، وتهدهد رضيعتها، كم كانت دهشة الكل لا تصدق، تغيرت معها تغير العدو مع عدوه.

أما أنا فلم أسلم من لسانها السليط وأوامرها التي لا تنتهي، كنت كخادمة بدل طالبة تحضر لإمتحان صعب سيقرر مصيرها، ومصير حياتها، لم أكن أتذمر من طلباتها، بل أطعتها في كل كبيرة وصغيرة، كنت أمشي وكتاب التاريخ في يدي، وورقة المصطلحات

في اليدّ الأخرى، وعيني على الحليب فوق الموقد، وعلى الحساء، وعلى الملابس آلة الغسيل، أعصابي لم تكن تتحمل شيئا آخر إكتفيت بالصمت وتنفيذ كل تلك الطلبات التي لا تنتهي، وعدت نفسي أن أنجح، وعدت نفسي أن أجتاز كل تلك العقبات بقلب من فولاذ، كنت أتعب وأشقى نهارا كآلة من حديد، وأبكي وأراجع دروسي ليلا، كخفاش لا ينام، وكم كانت سعادتي لا توصف وأنا أصبح وأنام على وجه فرح إبنة أختي، وجهها الملائكي، وعيونها المغمضة طيلة الوقت،

يـداها الصـغيرتين، ورائحتهـا التـي لـم أشـتم أجمل منها.

قضيت فتـرة رائعـة مع صغيرتي التـي لا أشـبع من التأمـل فـي وجههـا، إعتنيـت بـأختي جيـدا وكنــت لهـا خيـر الـونيس، والآن بقـي أسـبوع للإمتحـان الـذي سيكـون الفيصـل، إمـا معانـاة وإما إستقلال.

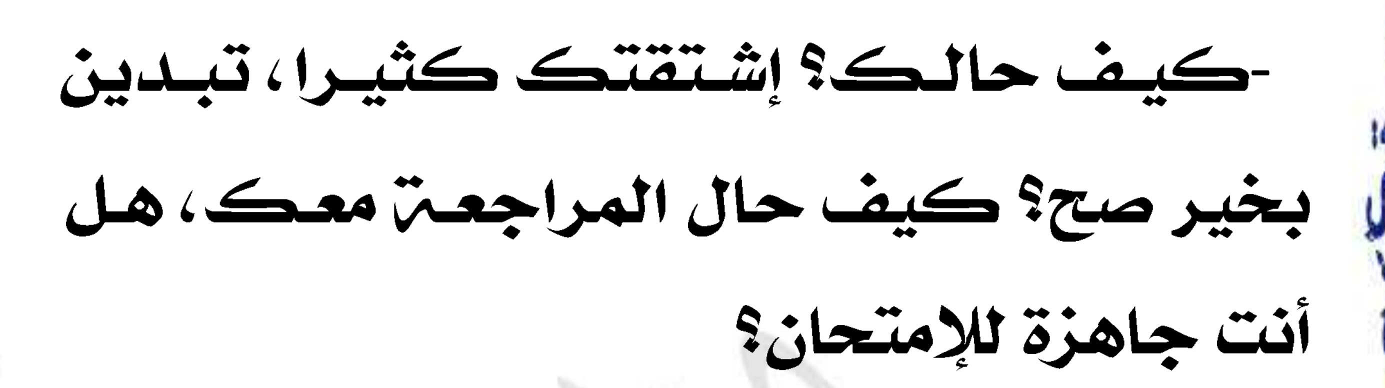
لـم أصـدق حـين أتـى يوسـف للمنـزل طالبـا رؤيتي، وأنا التي لم أحدثه منذ شهرين، لبست مـا وصـلت لـه يـداي ولـم أتعمـد أن أتـأنق لـه، فرأيته

لي بمنظر جميل لا تهمني، ورضاه لا يهمني أيضا، وضعت حجابي فوق شعري وإتجهت صوب الصالون حيث كان يجلس.

ما إن رأيته حتى خفق قلبي وقارب الخروج من صدري، نحف كثيرا وتغيرت ملامحه، كان يبدو حزينا على غير عادته، جلست على مقربة منه وألقيت التحية ببرود، غير أنه صمت وردها بعد برهة من الوقت.

-مرحبا بك

قالها بنبرة باردة، وبعدها تغيرت نبرته وكأن الذي تكلم قبلا لم يكن هو.



-كيف حالك؟ إشتقتك كثيرا، تبدين بخير صح؟ كيف حال المراجعة معك، هل أنت جاهزة للإمتحان؟

-إلهي كم أصبح لطيف، إشتقته وإشتقت صوته رائحته وحتى ملامحه الجميلة.

صمتت وأومأت إيجابا مجيبة بإقتضاب، هاربة من نظراته المصوبة نحوي دون خجل.

-الحمد لله كل شيء بخير.

تطلع إلي وقال بنبرة حانية مفجرا مفاجئته في وجهي، دون سابق تمهيد.

-أنت طالق، أنت حرة من اليوم لم يعد هناك شيء يربطنا، تستحقين الأفضل، صحيح أنني أحببتك لكن القدر كان معاكسا لأحلامنا، وأعرف أنني أخطأت في حقك وفي حق ثقتك التي وضعتها بي، آسف

حقا لكل ما مررتي به بسببي.

لم أستوعب ما قال ولم أجرؤ على رفع عيناي والنظر في عينيه، شعرت ببرودة تسري في جسدي، تنملت قدماي تجمد الدم في عروقي، وما تزال نظراتي مرتكزة على بلاط الغرفة.

كسر ذلك الصمت قائلا بخفوت.

-لم أخبر أحدا أردت أن أعلمك قبل الجميع، حتى تحضري لإمتحاناتك دون ضغوط.

"بربك يا يوسف هل ما قلته توا صحيح، هل طلقتني أو بالأحرى فسخت خطوبتنا، ومن قال أنني أريد هذا من قال أنني أرغب في البقاء تحت سقف هذا السجن؟ كيف لك أن تقرر هكذا قرار دون العودة لي؟ "

كنت أحدث نفسي دون أن أحرك شفتاي، دون أن أنبت ببنت الشفه، وماذا عساي أقول؟

رفعت عيناي ببطئ عن الأرضية وناظرته بنظرات خائبة ودموعي الحبيسة تكاد

تنفجر كسيول لن تكبحها أية عقبة، تطلع إلي في تساؤل وقال بتوتر:

-أنت بخير؟

أومأت إيجابا دون أن أتحدث، لو تحدثت لإنفجرت حصون مقاومتي الزائفة، بينما أصر هو على الحديث..

-أظن أنه أحسن قرار بالنسبة لنا، صحيح أنني أخطأت في حقك لكنني لا أريد ظلمك معي أيضا فما كسر بيننا غير قابل للإصلاح أبدا، على الأقل من جهتك، فمنذ تلك المشكلة إبتعدت عني كثيرا كأنني

غير موجود في حياتك، وهذا ما لم أستطع تحمله.

"من قال أنني أرغب في الإنفصال عنك صحيح أنك خنت ثقتي وجرحتني لكنك أحسن منهم كيف لك أن تتخلى عني؟"

لم أستطع تحمل المزيد من كلامه الموجع، قاربت دموعي على الإنهمار، تركت لها العنان في ترجمة ما لم أستطع قوله بلساني، تركتها تعبر عن مدى أسفي على علاقة وؤدت في أولها.

حاولت كتم شهقاتي، حاولت إسكات تلك الآااه غير أن كل تلك المحاولات كانت دون



جدوى، كل شيء يمشي معاكس لرغبتي، ضدها.. وكأنه إنضم لحلف الطغاة الذين أعيش معهم منذ أن فتحت عيناي على هذا الجحيم، مدّ يده ليساندني في محنتي، مدّ يده ليهدهد عليّ بعد أن ألقى قنبلته، ورأي بعينيه ما فعلته بي شظاياها المتناثرة، قال بنبرة مندهشة مزيفة، كان يعرف جيدا أنني سأرضى بقدره هروبا من قدري الذي سلب كل طاقتي..

-ما بك كفاك بكاءً أليس هذا ما أردته منذ شهور؟ نفذت رغبتك لما البكاء الآن؟

لا أصدق أنني عدت وحيدة بعد كل ما تحملت، يجب أن أفعل شيئا يرد إعتباري دون أن أمسّ كرامتي المهدورة بالأساس، وضعت يدي على وجهي وأخفيت ملامحي الشاحبة، وقلت دون أن أتردّد.

-لكنني أحبك، كيف لك أن تفعل بي هذا، تخليت عني بعدما أحببتك، أنت وغد وحقير لا يميزك عنهم شيئا..

بلع تلك المفاجئة بصدمة شعرت أنه تجمد إثر سماع ما قلت، صمت

عن الكلام برهة من الوقت، نزعت يداي عن وجهي وبقيت نظراتي معلقة ببلاط الغرفة لم

أمتلك الشجاعة الكافية لرؤية تأثير مفاجأتي على ملامحه.

إبتسم هو وقال بصوت خافت:

-هل ما قلته الأن صحيح!أحقا أحببتني؟ أم أنك لا تعين ما تقولين

رفعت عيناي ناظرته بحنق، هل يعتقد أنني مجنونة لأقول ما ليس صحيح؟

نهضت من مكاني بخفة، وقلت بنبرة باردة منهية الحديث:

-حسنا إنسى ما قلته لك، تكلم مع والدي وإنهي الخطوبة رسميا..

لم أضف كلمة أخرى، وإتجهت صوب باب الغرفة بثقة لم أعهدها في نفسي قبلا، ما إن وضعت كفي على مقبض الباب حتى أوقفني صوته الأمر.

-توقفي!.

توقفت وكأن الأمر موجه من جهة عليا لا نقاش مع قراراتها وأوامرها، لكنني لم أستدر، قال بلهجة لا تشبه سابقتها، محاولا تلطيف الجو حتى ينال غايته.

-أنا أيضا أحببتك وتعلقت بك ما الحل الآن؟

لا أدري من أين أتتني تلك الشجاعة حتى لا أضحك ملئ صوتي منتصرة عليه، من يظن

نفسه حتى يتخلى عني، وكيف لي أن أبقى سنوات إضافية في سجن موحش كهذا، وقفت مكاني دون حراك وإبتسامتي لا تفارق وجهي بينما أردف هو قائلا.

-هل ننسى ما حصل اليوم كأنه لم يحصل ونكمل طريقنا؟

لم أجبه ودام صمتي، بينما إنزعج هو وشعر أنه تسرع في إتخاذ قرار من الممكن أن يكون مرفوضا

نزعت يدي عن مقبض الباب وإستدرت نحوه ببطئ، حاولت إخفاء إبتسامتي وعدم إظهار لهفتي عليه، تقدمت خطوات وجلست على

مقعد بعيدا بعض الشيء عن المكان الذي كان جالسا به.

قلت بنبرة خافتة وقلبي يرقص فرحا:

-لكنك قلت أنك طلقتني كيف ستصلح الأمر؟

إبتسم بإرتياح وقال بنبرة واثقة:

-دعي الأمر لي، لن يحصل إلا كل خير كوني واثقة.

أومأت إيجابا ولم أرفع وجهي من الأرض خجلا منه، غير أنه غير مكان جلوسه وتقرب إليّ قليلا.

همس بحب وبطريقة لم أعهدها في تعاملاتي مع الجنس الخشن:

-منذ متى حصل ذلك؟

عما يتكلم هذا؟حدثت نفسي متساءلة دون أن أجهر.

رفع نبرة صوته مكررا سؤاله بطريقة أخرى:

-متى أحببتني؟

شعرت أن حرارة العالم كلها إجتمعت في وجنتاي، شعرت أن الأرض تميد بي، وخافقي يقيم حفلة بالطبول داخل صدري، رجفة صغيرة سرت في جسدي، حاولت إخفاء

إرتباك وراء إبتسامة خجلة، وقلت بصوت لا يكاد يسمع:

-لا أدري، لكن بعدك عني في الفترة الماضية أشعرني بالوحدة والتشتت، وخجلت من الإتصال بك ومصارحتك بمشاعري تجاهك.

شعرت أنه سينهض من مكانه ليرقص أمامي، لم يصدق أن تلك التي قالت له بصريح العبارة وبدون مشاعر " لا أريدك في حياتي " هي نفسها من تقول له { أجببتك } سبحان مغير الأحوال.

كم أعشق إبتسامته وكم أعشق غمازتيه، وكم أعشق رائحة عطره، رغم كل ما حصل بيننا إلا أنني لم أكرهه، صدقا لم أحقد عليه، غير أنني وعدت نفسي ألا أشتكي همي له مرة أخرى، وهذا ما سيحصل مستقبلا، كنت كتومة لا أخرج سرّ عائلتي لأي كان.

غادر يوسف والفرحة لا تسعه، وعدت أنا إلى غرفتي وإرتميت على سريري، وقلبي يكاد يتوقف عن النبض، لا أصدق أنني قلت ما قلت دونما تفكير .

-هل يعقل حقا أنني أحببته؟ هل أحببته حقا؟ مصيبة لو أن هذا حدث فعلا..

دخلت نجاة الغرفة وقفت عند رأسي غير أنني لم ألمحها، كنت غارقة في أحلامي الوردية،صفقت بكلتا يديها بقوة، لأخرج من تلك النشوة الجميلة على واقع مرّ لا ألبث أتمرغ به حدّ الثمالة.

قطبت ما بين حاجبيّ بضيق ولزمت الصمت بينما قالت هي بخبث:

-الوجه المبتسم الضاحك ليوسف والمتجهم لنجاة، أنت غير منصفة يا فتاة.

نظرت إليها في خبث ولم ألبث أنفجر ضاحكة، إستقمت في جلست تلك وأجلستها

بجـانبي وسـردت عليهـا مـا حصـل جملـة وتفصيلا.

ضربتني على يدي وهمست بغضب:

-وهل ما فعلت شيء جيد حتى ترويه لي بكل هذه البساطة والضمير المرتاح؟

مـن الاول لـم تـكـن نيتـك سـليمة فـي هـذا الـزواج، وأكملـت مـا تبقـى الآن، جيـد جـدا واصلي .

قلت بنبـرة واثقـة محاولـة بـث الإطمئنـان في قلبها.

-يبدو أنني أحببته حقا، هذا ما أشعر به داخلي.

لم تصدقني طبعا، فمن كانت تحلف بأغلظ الأيمان أن تتخلص منه، وتخرجه من حياتها تعكس كل شيء الآن، ربتت على كفها في حنو وحاولت إقناعها غير أنها أكدت لي أن هذا مجرد وهم وليس حبا لانني لم أحب ولم أعرف معنى الحب، وبعض الإشتياق والحنين حسبته حباً، خالفتها وجهة النظر قلت أن ما أشعر به يسمى حب وهذا ما سأسعى له، أنا أحب يوسف ولن أتخلى عنه.

مقتنعة أن هذا ليس وهماً، وهذا ما سأسعى لتحقيقه، سأتزوج وسأخرج من هذا السجن، وسأعيش حرة ولو كنت مقيدة بذلك الزواج، لا يهمني، المهم أن ما سعيت له تحقق، ويبدو أنني حقا وقعت في الحب، وقعت ولا سبيل لي للافلات من بين يدي القدر هذه المرة، كل ما عشته سيصبح ذكرى لعينة تمرّ ببالي فأنفضها وأكمل طريقي الذي سيكون يدا بيد مع يوسف، منقذي من الوجع والألم.

بدأ أسبوع الإمتحانات وبدأ الخوف من الفشل يتسرب إلى قلبي، غير أن سندي وخطيبي

يقف بجانبي، يشجعني ما إن شعرت بإقتراب النهاية، ويمسك بيدي ليعبر بي إلى الطرف الآمن، وما إن يرى بسمتي على وجهي حتى يرقص قلبه فرحا، حبي له يزيد يوما بعد يوم، مرّ الأسبوع كالساعة لم أشعر بتلك الأيام كيف مضت، غير أن الإرهاق وقلة النوم لم تُخفي ملامحها من وجهي.

أصرّ يوسف على أن اليوم الأخير سيكون يوم فسحة بالنسبة لي، نتناول الغداء مع بعض، ونخرج بعدها في جولة في السيارة، وبعد إصراره العنيد قبلت على مضض، وأظنها فرصة لا تعوض، سأتعرف على زوجي

المستقبلي عن قرب، سأخضعه لعدة إمتحانات آمل أن يجتازها بنجاح.

آخر مادة وآخر يوم للإمتحانات، إستنزفت كل طاقتي حتى أحقق حلمي، وأستقل بعض الشيء، دقّتْ ساعة الصفر وجمعت أوراق الإجابات والحمد للّه كان آخر إمتحان سهل وأظن أن علامتي به ستكون جيدة جدا.

خرجت فرحة لا أشعر بقدماي وهن تلامسن الأرض، تحدثت وصديقاتي قليلا تبادلنا الإجابات وتوادعنا، على أمل أن نلتقي يوم تعلن النتيجة في الثانوية.

خرجت من المركز الذي إمتحنت به، إتصلت بيوسف، ليدلني على المكان الذي ركن فيه السيارة، إتجهت صوبها بخفة وركبت في المقعد الخلفي وأغلقت الباب، ألقيت التحية وكلي حيوية.

لم يردّ عليّ قطب ما بين حاجبيه وساد الصمت، إستغربت حاله وسألت دون تردد.

-ما بك؟

وكأنه لم يسمعني ممسك بعجلة القيادة وينظر إلى الطريق والمارة في غضب.

كررت سؤالي بغضب يشابه غضبه، وإنفعال يعرفه جيدا حين تنتابني نوبة قلق.



-إن لم تشرح لي ما بك سأنزل وأتركك.

ضرب عجلة القيادة بعنف وإستدار نصف إستدارة ليواجهني، وقال بنبرة فضّة:

-ماذا أنا في حياتك؟

هل تعتبرينني غريب، ألست زوجتي أمام اللّه وعائلتك، لماذا جلست في المقعد الخلفي؟إذا أردت أن نكمل اليوم على خير تعالي وإجلسي بجانبي.

زفرت في ضيق من يحسب نفسه هذا؟

ليس بزوجي فعليا كيف له أن يلقي بأوامره في وجهي هكذا، وبعد هذا الجدال كيف

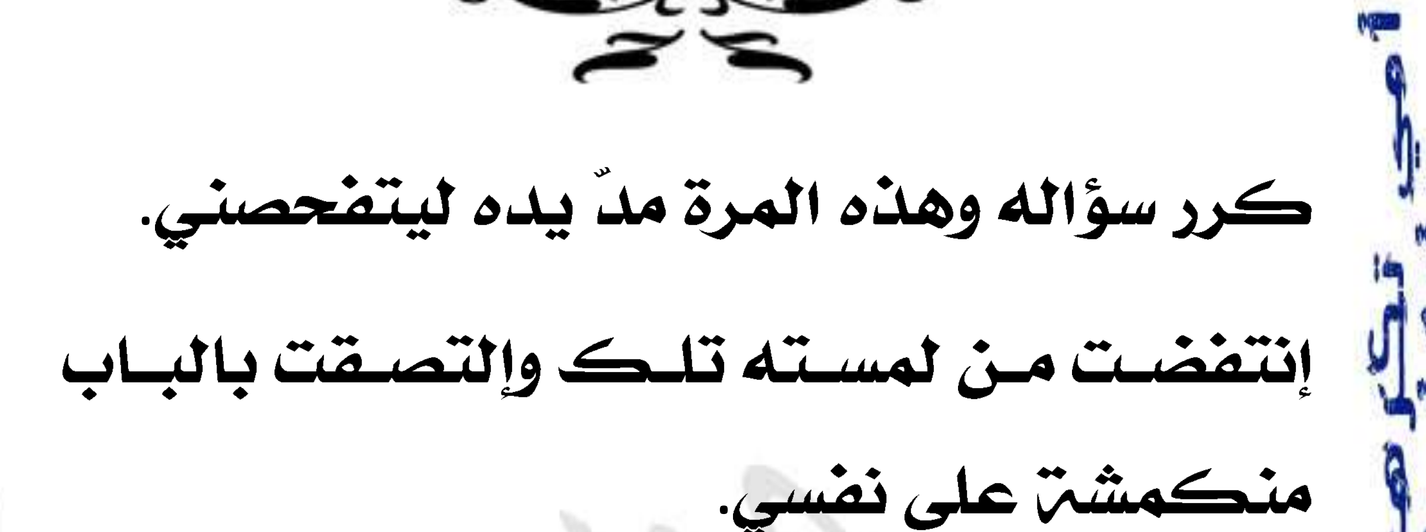


سأجلس بجانبه في المقعد الأمامي دون أن افتعل مشكلة،صدقا أشعر أن اليوم فسد من هذه الحساسية التي بلا معنى.

تنفست بعمق، إرتخيت فوق المقعد وأغمضت عيناي ببطء، لم يفهم شيء مما أفعل، ولم يستوعب ذلك الهدوء الذي إرتسم على وجهي، تساءل بصوت حاني مستفسرا عن حالتي.

-لمياء أنت بخير؟

وكأنني لم أسمع، إرتخيت أكثر ولا تزال عيناي مغمضتان وتنفسي بطيء لا يكاد يسمع.



كرر سؤاله وهذه المرة مدّ يده ليتفحصني.

إنتفضت من لمسته تلك وإلتصقت بالباب منكمشة على نفسي.

قال ممسكا بقلبه:

-ما بك ظننت أن مكروها أصابك، إلهي أشعر أن قلبي توقف عن النبض.

لا أزال ملتصقة بباب السيارة غير أن وجهه وهو بتلك الحالة جعلني أنفجر ضاحكة، إستغرب هو وقاحتي، وقال بنبرة عدائية.

-هل ستستمرين بالضحك هكذا؟

يبدو أن البرنامج الذي وضعناه ألغي سأوصلك إلى المنزل.

إستدار وإستوى في جلسته وإستعد للإنطلاق بالسيارة، غير أنني أوقفته بحدة وفتحت الباب وخرجت دون أن ألقي بالا لكلامه، أغلقت الباب بشدة كدت أخلعه بها ، وفتحت الباب الأمامي ودلفت للسيارة.

وضعت حزام الأمان ولم أنبس ببنت الشفه، ركزت نظراتي على الطريق وقطبت ما بين حاجباي.

كذلك هو لم يحرك ساكنا، تنفس بعمق محاولا السيطرة على نفسه وأفعاله، إنطلق بعدها بالسيارة إلى وجهة لا أعرفها.

بعد مدة قصيرة ميزت الطريق إنه يخرج عن المدينة كلها، تساءلت في خوف:

-أين تأخذني؟

قال بنبرة باردة دون أن يرف له جفن:

-سنتغذى ونعود لا تخافي.

-أين؟

تطلع إليّ بحدة وقال بنبرة غاضبة:

-نفطرو فالحمدانية ونطلعو متخافيش مانيش راح نخطفك.(نتغدى في الحمدانية ونعود لا تخافي لن أخطفك)

بلعت إبتسامة كانت ستقفز على ملامح وجهي، وقلت بنبرة مطيعة.

-حسنا كما تريد حتى لو ذهبت إلى آخر الدنيا معك لن أخاف.

لانت ملامح وجهه وعادت طبيعية، إبتسمت في داخلي وقلت بنبرة لم يسمعها

-يس (Yes)

مددت يدي وشغلت الراديو لم أجد به شيء يسمع، أغلقته وحملت هاتف يوسف وفتحته، لم يكن يضع شيفرة أو كلمة مرور، فتحته وبحثت في ملف الأغاني، وجدت مصحف مسموع مرتل بصوت العفاسي، وفي ملف آخر، توجد أغاني جزائرية رايوية.

ولأنني لا أحب أغاني الراي، أغلقت الهاتف ووضعته في مكانه وقلت بنبرة ساخرة.

-يوما ما سيسخطك اللّه إلى ضفدع بشع ولن أرضى عنك.

تفاجئ من وقاحتي وقال بإستغراب.

-لم أفهم؟ بماذا تخرفين؟



إنفجرت ضاحكة وقلت بأنفاس متقطعة.

-هاتفك يحوي مقاطع موسيقية مع القرآن الكريم، ولا يجتمع مزمار الشيطان مع كتاب اللّه، آظنك لم تضع هذا في الحسبان.

تطلع إليّ رافعا حاجبه الأيسر في إستفزاز وقال بنبرة واثقة.

-أراهن أن هاتفك يحوي قرآنا وأغاني كهاتفي.

قلت بتحدي دون أن يرف لي جفن.

-عليمن نتخاطرو؟(على ماذا نتراهن)

-أي شيء تريدينه.

قلت بنبرة واثقة.

-أحذف ملف الأغاني في هاتفك وأترك لك القرأن فقط.

قال بتهكم:

-أطلبي غير هذا الطلب، فكل اغنية من تلك الأغاني لها ذكرى خاصة .

قطبت حاجبي وقلت بنبرة غاضبة .

-خلاص أنسى، لا تتلف ذكرياتك من أجلي.ومن أكون حتى تفعل ذلك إرضاء لي.

إنفجر ضاحكا وقال بتهكم.

-هل أعتبر هذه غيرة ؟



ضحكت بسخرية وهمست له:

-ومن قال أنني أغار عليك؟

زاد من سرعة السيارة وقال بنبرة واثقة:

-كلامك، تصرفاتك كلها توحي أنك غيورة حدّ النخاع على أشياؤك الخاصة.

لزمت الصمت ولم أحدثه إلى أن وصلنا، وتجاهلت تلميحاته.

دلفنا مطعما جميل يعج بالزبائن، طلبنا غدائنا وتبادلنا بعض أطراف الحديث إلى أن وصل طلبنا، إستمتعت بالأكل وتلذذت بكل لقمة وضعت في فمي، لم أخرج إلى مطعم

كهذا إلا مع عائلتي، ولم أجلس في طاولة مع شخص غريب كما أفعل اليوم، قررت ألا أفكر في ما سيحصل لو أنني تأخرت، كان يوسف سخي جدا معي، ولم يبخل عليّ بأي شيء طلبته .

لم أشعر بالخجل وأنا آكل أمامه، حتى أنه وضع لقيمات في فمي، وأصرّ على وضع المزيد..

-كلي وتغذي، انت نحيفة جدا وكأنك لا تأكلين.

إهتمامه كان رائعا، يبدو أنني حصلت على النسخة الأجمل والأرق والأحن من نسخه

الأربعين، لا أصدق أن هذا الرجل سيكون لي ما تبقى من حياتي، سيكون أبا رائعا، واثقة من هذا، رغم كل ما فعلته به إلا أنه كان جيدا معي وعاملني بالحسنى وسعى دوما لإرضائي.

تناولنا غدائنا وإتجهنا لل { الفخار } جلسنا هناك حوالي الساعتين وإشتريت العديد من الإكسيسوارات والتحف، بالإضافة إلى طبل { دربوكة} وكم كانت سعادتي لا توصف وأنا أرى إهتمامه وسعيه لكسب ودي بتصرفاته .

أحاسيس لم أشعر بها من قبل، حياة لم أعشها بهذه المشاعر وكأنني أكتشفها للمرة الأولى، صدقا الحب شيء جميل، والإهتمام يسبق الحب بمراحل، فمن يحب حقا سيهتم، وسيجعل محبوبه من أولوياته .

وهذا ما فعله يوسف معي ذلك اليوم، عشت نصف يوم لن يمحى من بالي، أول خروجة معه كانت لا تصدق، رغم بساطتها إلا أن طريقته في جعلها شيء جميل شاعري ورائع أعجبتني.

بقيت ساعة لأدخل المنزل، إنطلقت ويوسف بالسيارة متجهين للمنزل، كنت مرهقة بشدة، لم أنم منذ أسبوع إلا سويعات قليلة

عدلت المقعد وإسترخيت، قلت له دون أن أرفع بصري إليه.

-سأنام قليلا، قبل أن نصل أيقظني.

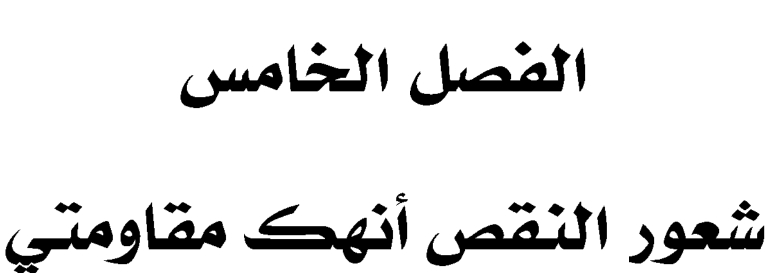
لم أسمع ما قاله بعدها، ورحت في سبات عميق..

فتحت عيني في غرفة ضيقة وسرير عالي بعض الشيء، تحسست يدي لأجد مصلا معلقا بها، حاولت نزعه إلا أنني أخاف الإبر، بحثت عن حقيبتي فلم أجد شيئا، ناديت بأعلى صوت وقلبي يرتجف من الخوف

فتح باب الغرفة ودلف أخي وليد ووالدي، رجف قلبي وشلت حواسي، ما الذي يحدث



هنا؟ أين يوسف؟ كم الساعة الآن؟ أسئلة تزاحمت في رأسي وجعلتني أشعر بالشلل، لم أفصح عما يقلقني غير أنني بكيت، وشعوري أن نهايتي إقتربت لا محالة سيطرعلى تفكيري.



الفصل الخامس

شعور النقص أنهك مقاومتي

لـم أسـتطع النظـر فـي وجـوههم، لابـد أن مـا فعلتـه كشـف، كيـف خنـت ثقـتهم؟ كيـف خرجت وراء ظهورهم ودون إذنهم، أستحق كل ما سيحصل معي، وكـل مـا سـيفعلونه، لا أدري حقـا أي مصـير ينتظرنـي، تعالـت شـهقاتي، وإزدادت حـدّة نحيبـي، أخرجنـي مـن تلـك الحالـة المزريـة صـوت أبـي الشـجي، ونبرتـه الحانيـة التـي إفتقـدتها منـذ سـنوات طـوال، جلس على طرف سريري وحـاول إبعـاد كفـاي

عن وجهي، متساءلا عن سبب بكائي بهذه الطريقة.

-لمياء حبيبتي ما بك! هل يألمك شيء؟ هل أستدعي الطبيب؟

لم أتجرأ على النظر في عينيه، بكيت حتى كاد دمعي أن يجف، ولم أجرأ حتى على السؤال عن يوسف، شعرت أن الغرفة تميد بي، وأن السرير يتحرك وكأنني في قارب في عرض البحر، غثيان مفاجئ تملكني، أردت أن أتقيء، ووجع أسفل بطني، رعشة خفية سرت بجسدي.

كيف لي أن أسأل عن يوسف كيف لهم أن يتقبلو خروجي معه دون إذنهم؟ كما يقال " خيط الكذب قصير وراشي" وها قد كشفت كذباتي، ورفع الحجاب لتظهر الحقيقة بكل وضوح، غطيت فمي بطرف كفي ونظرت إلى وليد في إستعطاف، متساءلة في خوف:

-ماذا أفعل هنا؟ كيف وصلت؟

جلس وليد على كرسي بلاستيكي بجانب سريري، وقال بنبرة مطمئنة:

-لا تخافي لم يحصل شيء، هبوط عام في السكري والضغط بسبب الإرهاق وسوء

التغذية وقلة النوم هذا الأسبوع، كما أن حرارتك إرتفعت وأنت في المركز تمتحنين، مما أجبرهم على القدوم بك للمشفى، فحالتك كما قال الطبيب كانت سيئة جدا.

الحمد لله على سلامتك، اعتني بصحتك جيدا من الآن وصاعدا.

إرتحت شعرت أن غمامة أزيحت من على صدري، في الحقيقة لا أعرف إن كنت قد عشت ما عشت في أحلامي وعلى هذا السرير، أو أنني حقا خرجت مع يوسف وقضيت يوما من أجمل الأيام في حياتي.

لم أتجرأ على سؤاله عن يوسف، وكيف لي أن أسأل عنه وأنا غير متأكده أن ما حصل، حصل حقيقة وعلى أرض الواقع.

ربت والدي على يدي، ونصحني بالإعتناء بصحتي جيدا، وكم تمنيت أن يعتني بي هو بدل هذه النصائح التي لا تسمن ولا تغني من جوع، بعد دقائق نهظ وليد وقال بنبرة متساءلة:

-قال الطبيب أنك ستمكثين الليلة هنا في المستشفى للمتابعة، سأذهب للمنزل لآتي لك بشيء مريح تنامين به، بماذا ترغبين؟

تفاجأت حقيقة، فأنا أكره جو المستشفيات ورائحة المرض، غير أن في حالتي هذه ينبغي أن أبقى هنا تحت رعايتهم، خيرٌ من أن أذهب للمنزل لأجد نفسي وحيدة دون معيل ولا ممرض يسعى للسهر على راحتي.

بعد أن أوصيته عن لون وشكل المنامة، دلف خارج الغرفة هو وأبي، وتركوني لوحدي أتصارع وذكرياتي، مقتنعة أن ما حصل، كان مجرد حلم جميل فقط.

نزعت الفكرة من بالي ونمت على جانبي الأيمن مقابلة الباب، منتظرة دخول والدي وأخي مرة أخرى منه.

مرت حوالي الساعة، رفع آذان العشاء، قمت من مكاني بثقل، أغمضت عيني بشدة ونزعت تلك الإبرة الغبية، شعرت أن يدي تحولت للون الأزرق في ذلك المكان، غير أنني لم آبه، وبأي درجة أصنف شكة الدبوس هاته مع الألم النفسي الذي تجرعته منذ أن وعيت على هذه الدنيا.

فتحت الباب بعد أن لففت حجابي وأخفيت شعري جيدا، بحثت عن الحمام، فأرشدني ممرض شاب، دلفته توضأت وناظرت نفسي جيدا، فلم أرى سوى جثة هامدة تنتظر خيانة الروح وهروبها هي أيضا.

خرجـــت للـــرواق وإتجهـــت صـــوب إحـــدى الممرضات، تبـدو كبيـرة فـي السن وقديمة هنا طلبت منها بلباقة سجادة ومصحف.

-رجاء دخل وقت صلاة العشاء وأحتـاج سـجادة ومصحف، هل أجده عندك؟

رحبـت بـي بوجـه بشوش، وربتـت على ذراعـي بحنـو، وأخـذتني معها لإحـدى المكاتـب في نفس الرواق.

صـليت هنـاك أوقـاتي جمعـا، وأخـذت ذلـك المصـحف الصـغير الـذي أعارتـه لـي وإتجهـت صوب الغرفة التي كنت أمكث بها.

قرأت ماتيسر لي من الذكر الحكيم، وقاطعني دخول والدي وأخي محملين بأكياس، وكالعادة كنت أعرف أن أمي لن تأتي معهم ولو جاؤوها بخبر موتي، وهي من دعت لي بالموت حرقا وغرقا كأنها تدعي على حيوان لا على إنسان.

جاؤوني بوجبة الشوارما التي أحب، مع بعض العصائر، وبيجامتي المفضلة، تناولت عشائي، وتبادلنا أطراف الحديث لبعض الوقت ليدخل الطبيب، المشرف على حالتي بعدها، قال أن حالتي تستحق متابعة ويجب أن أبقى في المشفى الليلة وبما أن الغرف كلها محجوزة

يجب أن أبقى هنا في الإستعجالات، ولا داعي لأن يبقى معي أحد ، لأن الممرضين سيشرفون على راحتي.

أصرّ أبي على البقاء وأصرّ الطبيب على أن المشفى آمن، ولا شيء يدعوه للخوف عليّ

بعد شدٍ وجذبٍ وافق أبي على مضض، حمل مسؤوليتي للطبيب في حال ما حصل لي شيء لا قدر اللّه، وكم كان خوف أبي عليّ ذلك اليوم غير مبررّ، لم أشعر بإهتمامه ذاك منذ كنت طفلة، وكم تغير عليّ وتركني بين براثن أمٍ لا ترحم.

إبتلعت غصة قاربت على خنقي، وتوسلت لدمعي ألا يفضح ما تخفيه سريرتي عن طبيب غريب قد يظن أن ذلك الألم هو ما يبكيني، وعن أب ظن أنه بفعله هذا سيعوضني أيام وليالي الحرمان، ومن سيعوض طفلة فقدت أباها وأمها وتيتمت وهوما على قيد الحياة، وعلى قيد المسؤولية.

إستلقيت على ذلك السرير البارد وقلت بنبرة متشنجة حاولت ما إستطعت إخفاء تلك الغصة وبلعها إن تطلب الأمرّ:

-أشعر أنني متعبة، يمكنكم الذهاب الآن، لا داعي للبقاء.

سأغير ملابسي وأنام لا تقلقا أرجوكما.

إنكمشت على نفسي ودفنت وجهي في الوسادة، وكم كنت في أشد الأوقات ضعفا، وكم كانت حاجتي للبكاء كبيرة، شعرت أن دمعي يخنقني، ويغشي الرؤية أمامي.

إنحنى أبي إليّ وقبّل رأسي وكذلك فعل وليد ، وإنصرفا.

وضعت وجهي في الوسادة وإنفجرت باكية، وأي راحة تعادل تلك الراحة، أخرجت كل ما علق بعيني من غبار، وكل ما إلتصق بروحي من ألم ووجع.

أطلقت صراح تلك الشهقات المكتومة، غير أني تصديت لها وخنقتها بتلك الوسادة حتى لا تصل إلى المرضى في الرواق، إنهارت حصون مقاومتي اللعينة، وإنهارت آمالي وأحلامي، وما كان سيضرها لو بعثت لي بطعام من البيت؟ ألست مريضة وأحتاج شيئا ساخن؟ لماذا لم تتصل حتى للإطمئنان عن حالتي؟ لماذا لست كباقي البنات، لهم أهل يسألون عنهم ويشعرون بتعبهم قبل أن تتكلم أفواههم، ماذا ينقصني لأكون كالبقية؟ جاء أبي بوجبتي المفضلة " الشوارما " وماذا بعد؟ هل

عوضتني غياب أمي في وقت أنا في أشد إحتياجاتي لها؟

صدقا موتي سيكون مريحا للكل، لماذا لم أمت وأعفيها من همي ومرضي، ومن حياة لم أرغب في الخروج إليها برضايتي، ماذا كان سيضرك يا أمي لو وقفت بجانبي، حتى ولو بزيارة على باب الغرفة تشعرينني بها أنني إنسان، وأنني مرغوبة، ما ذنبي أنا؟ وما ذنب قلب مات حزنا من جفاءك.

أشعر أن الكل أحسن مني، وأنا أقل من الكل؛ ناقصة أنا، لا نفع من حياتي، ومن سيربت على

يدي الآن ويطمئن قلبي، شعوري بالكآبة بلغ مبلغه، وحز في خاطري.

إستدرت إلى الجهة الأخرى، وكان الباب يقابل ظهري، وضعت السماعات في أذني وبحثت عن أغنية كان يوسف قد بعثها لي في برنامج الواتس آب، لـ " بلال الصغير"

"يامن كثرت لي نبغيك..

نڨلعها مني ونعطيك..

نڨولك مش خسارة فيك..

راكي تستاهلي ڨع دا الشيء وقليل..

كنت بيدي نوكل فيك..

تمرضي نحزن عليك..

غابن روحي باه نهنيك..

واليوم علاه درتي عليا "...

لم أتمالك نفسي بعدها ورحت في بكاء شديد، كدت أخسره وكدت أخسر حبا ربما لن يعوضه أحد.

حفظت كلمات الأغنية عن ظهر قلب، وتابعت سماعها عدة مرات.

وصلت لذلك المقطع حيث قال.

"ماشي فحلة كي نساء لخرين..

ماتبنيتيش بساس متين..



ضيعتي عشرة سنين..

قلبك خاوي معندك إحساس"...

ومن قال أنني كباقي النساء، ومن قال أن أساس بنائي كان متين لا تهزه رياحٌ، من قال أنني كالأخريات؟ صدقني مات كل شعور جميل بي، حتى لو رأيت دموعي لا تصدق أنها دموع ألم ووجع، أنا فقط أبكي لأنني أريد ذلك، بتلك الأغنية أحييت كل وجع بقلبي، تمنيت أن يكون ذلك الحلم الذي رأيته اليوم حقيقة، ما الضير لو أنه تحقق

على أرض الواقع؟ ما الضير لو تأتي الآن وتضمني؟

أحتاج حضنا وكتفا أبكي عليه، غريبة أنا في وطني، شعور الغربة يخنقني.

لا زالت الأغنية تدور وتعاد وتتكرر نفس كلماتها التي تذبح روحي وتذكرني بخساراتي الوشيكة، تبللت وسادتي وشعري، وإحمرت وجنتاي، إنتفاخ عيناي أمرٌ مزعج غير أن هذا لا يهم، من سيراني وأنا بهذه الحالة؟

مسحت ما علق بأهدابي من عبرات وإستدرت على جنبي الآخر، وكم كانت دهشتي لا تصدق، همست بنبرة خافتة، ويدي على فمي:

-يوسف.

إبتسم وردّ بنبرة خافتة:

-ياروح يوسف.

شعرت أنني أحلم قلت بتوتر محاولة ترتيب نفسي ومسح عبراتي.

-منذ متى وأنت هنا؟ لماذا لم تتكلم؟

إبتسم وقال بنبرة غير مبالية:

-منذ مدة طويلة..

تركتك تبكين دون أن أزعجك، لا أحب مقاطعة إنسان يبكي، خصوصا لو كان

مثلك، يهرب من وجعه بالبكاء " نعرفك بكاية "

شعرت بالإنزعاج من نبرته الباردة ووصفه لي بي " البكاية " متى بكيت أمامك؟

لم تكن مرة واحدة وفقط، إلاهي كم يستغل الفرص.

واصل بنبرة مرحة:

-أبقاي كيما راكي، نحبك متشخلطة هكذا..

مدّ يده وخرّب حجابي وضمني إليه، قاومته وحاولت إبعاده، لكنني أحوج إلى ذلك

الحضن من أي شخص آخر في العالم، تمسكت بطرف قميصة وإستنشقت رائحة عطره، بعد أن أفقت على نفسي إبتعدت وهو أيضا.

قلت بنبرة باردة من دون أن أتطلع إليه:

-كيف علمت بأمر مكوثي هنا؟

هل أخبرك محمد؟

إنفجر ضاحكا وقال بنبرة مازحة:

-أنا من أتى بك للمشفى، ألا تذكرين؟ كنت شبه التي دخلت في غيبوبة وإرتفعت حرارتك.

خفت عليك كثيرا، لن تصدقي مدى خوفي عليك، الحمد للّه على سلامتك.

لم أصدق ما سمعته أذناي، هل ما عشته حقيقة؟ هل ما حسبته حلم تحقق حقا على أرض الواقع؟

تهت في قسمات وجهه وهو يتحدث، قلت بنبرة خافتة لا تكاد تسمع وعيناي معلقتان بعينيه:

-هل ما عشته اليوم حقيقة؟ لم يكن حلما إذن؟

حك طرف ذقنه بإستغراب وقال بنبرة متساءلة:



-أي حلم تتحدثين عنه؟

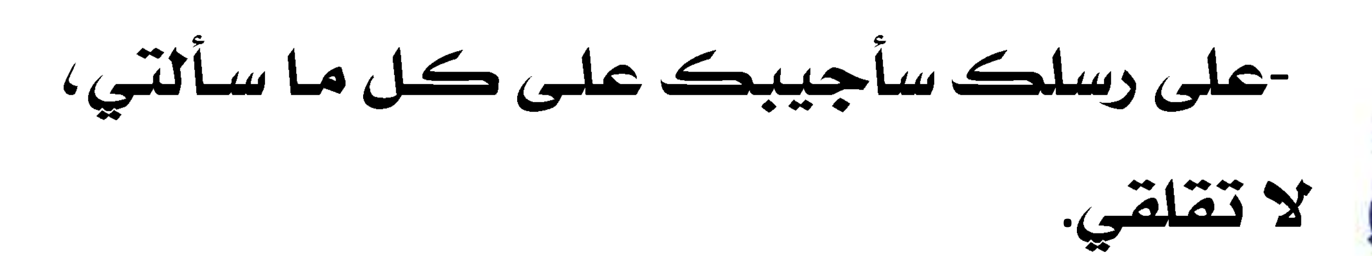
قلت مفسرة كلامي:

-كنت أظن أنني حلمت بخروجنا اليوم، ولم يكن حقيقيا، وتأكدت من ذلك حين قال أبي أنني نقلت من مركز الإمتحانات إلى المشفى مباشرة؟

صحيح كيف حصل هذا ولماذا لم تظهر وأبي هنا؟

وكيف سمحو لك بالدخول أليست ممنوعة الزيارات في هذا الوقت؟

ضحك ملئ شدقيه وقال بقهقهة:



-على رسلك سأجيبك على كل ما سألتي، لا تقلقي.

قلت بنبرة قلقة:

-من دون مقدمات هيا تفضل إشرح لي، رأسي يكاد ينفجر من كثرت التساؤلات.

أومأ إيجابا وقال بنبرة حانية:

-أمهم من أين نبدأ..

حسنا عندما نمت في السيارة، وقبل أن نصل للمدينة حاولت إيقاظك، غير أن كل محاولاتي بائت بالفشل، وقفت على جانب الطريق وتفقدتك، لأجد وجهك أحمر

يكاد ينفجر من الحرارة، كنت تتعرقين وكأنني غطستك في مسبح وأخرجتك منه، خفت أن مكروه حصل معك، كما أن إستجابتك لي كانت منعدمة، إتصلت بصديق لي يعمل في المستشفى وقلت أنني سأتي بك، إستقبلني عند الباب وبعدما أدخلناك وأسعفوك وإطمأنيت عليك، أعطيت رقم والدك لذلك الصديق وهو من كلمه على أساس أنه من مركز الإمتحان، وأخبره بالقصة التي ألفتها حينها، مفادها أنك مرضت وأنت تمتحنين وأتو بك إلى المشفى، والحمد لله إنطلت الخدعة على

والدك وصدقها، لم أقصد الكذب عليه، لكن لا حل أمامنا غير هذا .

وبما أن مرض اليرقان " بوصفير" عاد إليك فأصر الطبيب على بقائك الليلة للمراقبة.

علت دهشة على وجهي وقلت بتخوف:

-كيف عاد؟ ألم أعالجه المرة الماضية، أووف الأن فقط عرفت سبب ألم البطن هذا.

عموما فعلت خيرا بإخفائك الأمر، لو علم أهلي بما فعلناه لما سمحوا لك برؤيتي مرة أخرى.

ربت على يدي وهمس:

-لا تقلقي صغيرتي كل شيء على أحسن ما يـرام، لا بـأس فتـرة صـعبة وسـتمر، كـوني قوية.

سآخذ لك موعدا مع شخص " يقطع الصفاير " لأن علاجه ليس

الـدواء، الـدواء يخفف الألـم لا غيـر، وسـأقول لمحمـد ونأخـذك إليـه، هكـذا لـن يعـود مجددا، لا أريد لصغيرتي أن تمرض مرة أخرى.

قلت بتساؤل:

-لماذا لم يخبرني أبـي والطبيـب بـأمر المـرض وقالوا أنه مجرد تعب فقط..

-أمم ربما لم يشاؤو إزعاجك، هيا نامي قليلا وسأبقى معك للصباح لن أذهب لأي مكان.

قلت بدهشة مستنكرة الأمر:

-ستبقى ؟

ردّ بنبرة حاسمة:

-وهل سأتركك بمفردك في غرفة في الإستعجالات بابها يفتح لأي كان؟ هيا نامي وأغلقي فمك.

ياه هل يخاف عليّ حقا؟ شعور جميل يضاف إلى قائمة الأحاسيس التي لم أعشها ولم أشعر بها.

لم أجبه وبقيت صامتة أستلذ تلك اللحظة محاولة إستغلال كل ثانية بها.

قال هو بنبرة حاسمة

-ماتنسايش رانا مفتحين، ومانيش راح ناكلك، أرقدي دوك .

قمت من مكاني بتعب واضح، فتحت الكيس الذي أتى به وليد ، أخرجت منامتي، وأشرت له بها.

لم يفهم قصدي أو أنه فهمه وتمادى في وقاحته، قال وإبتسامة خبث تعلو ملامحه.

-ألبسي شكون شدك؟

ثـرت هـذه المـرة فـي وجهـه ودفعتـه دفعا نحو الخارج، بينما ضحك هو، وقـال قبـل أن أغلق الباب:

-أنا هنا عندما تنتهين أخبريني.

أغلقــت البــاب دون أن ألقــي بــالا لكلماتــه، غيرت ملابسي، ودلفت لسريري وتدثرت جيدا.

بعد وقت قصير طُرق البـاب، وإستأذن يوسف للدخول، جلس في نفس المقعد، وقـال بنبـرة خافتة:

-هيا نامي الآن وأنا هنا لا تقلقي.

أشعرتني كلماته بالطمأنينة، أغمضت عيناي ونمت كرضيع لا يعكر صفو حياته شيئا.

***

فتحت عيناي صباحا فلم أجد أحدا بجانبي، إنخفضت حرارتي، وعادت إلى بعض من حيويتي، لم أجد تلك الإبرة في يدي ولا كيس الغلوكوز الذي كان معلقا ليلة أمس في ذلك الحامل المعدني .

حملت هاتفي وإتصلت بيوسف، قال أنه خرج ليشتري لي شيئا آكله وسيعود.

تطلعت للساعة في هاتفي لأجدها السابعة والربع فقط، لا يزال الوقت باكرا، توضأت وصليت الفجر متأخرا، وجلست بإنتظار فارسي.

مرّ اليوم سريعا خرجت من المشفى، وكم تمنيت أن أمكث فيه أياما أخرى في رعاية يوسف الذي لم يتركني وكان لي خير ونيس وخير أنيس.

ما عشته كان كَالحلم الجميل الذي لا يتحقق على أرض الواقع إلا للمحظوظين، وكنت أوفرهم حظا هذه المرة، من تملك حب يوسف تملك الدنيا بأغلى كنوزها، فقدت أغلى المشاعر التي حصل عليها الكل بنسب

متفاوته، حب الوالدين وإهتمامهم، غير أنني حصلت على حب خطيبي، أصبح أكثر حذرا في التعامل معي، لم يصرّ بعد أن عدنا على سؤالي عما يجري بيني وبين أمي، وهذا ما أردته بالضبط حتى لو سألني لن أجرأ على سردي معاناتي له، جربته مرة وندمت أشد الندم على ما فعلت.

أحمد اللّه أن عوضني به، كان وليد يقول لي دوما أن اللّه سيعوضني برجل يحبني وبعائلة لطيفة تنسيني ما عشته في هذا المنزل، كان يردد دوما على مسامعي أن " اللّه يدهش حين يعطي، وأن عطاء اللّه غير محدود"

كنت أصدقه القول وأؤمن وراء دعاءه لي، أملك أحسن وأعظم أخ في العالم.

خرجت من المشفى وعدت للمنزل ولم أجد إلا وليد يعتني بي، وكالعادة أمي حاضرة غائبة في حياتي، هذه المرة لم تكن كسابقاتها، إستطعت التأقلم مع هذا المرض اللئيم، والذي أصر على زيارتي مرة أخرى.

بدأ الشهر الفضيل، لم أستطع الصوم بسبب الأدوية التي أتناولها لتخفيف الألم فطرت بعضا منه برخصة ربانية " ومن كان منكم مريضا ...... فعدة من أيام أخر."

لم أسلم من تهكمات أمي، كانت توقظني صباحا وتصر على إشراكي في أشغال المنزل وأنا التي لا أقوى حتى على الخروج للمرحاض بمفردي، وبعد أن تيأس مني، تبدأ نفس الأسطوانة اليومية، تعايرني بـ " وكالة رمضان " و " عرة لبنات ". وتدعي عليّ بأقذع الأدعية، رغم مرضي وقلة حيلتي إلا أن مقاومتي لها ولكلماتها أصبحت أقوى، قليلا ما أبكي، قلة حيلتي، وضعف شخصيتي، كان أبي يخرج باكرا للعمل، وإخوتي كذلك، لأبقى أنا بين يديها تفعل بي ما بدا لها .

كانت تعايرني أن إنتظاري لتلك النتيجة مضيعة للوقت لأنني لن أنجح، وأهل يوسف سيضحكون على فشلي، ترسخت فكرة الفشل في إجتياز شهادة البكالوريا في بالي وبدأت رحلة جديدة من الضغط النفسي .

كنت أبكي ليلا نهاراً، أبكي كره والدتي وبغضها لي دون سبب واضح، كنت ألعن كوني إبنتها، وكم دعيت عليها بالموت وعلى نفسي، ولم يأتي الموت ليخلصني من براثنها.

غدا نتائج البكالوريا، دخلت في نوبة بكاء هستيرية، لا أريد العيش لأرى فشلي.لا أريد

لويزة بداوي

تحقيق رغبة أم تكره إبنتها أشد كره وكأنها عدو لها .

إتصل يوسف بي وهدأ من روعي، قال أنني سأنجح حتى ولو لم يسعفني الحظ ولم أجتز هذه الشهادة سيبقى يحبني، غير أنني أريد أن أنجح فقط لأكسر شوكة أم لا تحب الخير لإبنتها.



الفصل السادس

النجاح كان بداية للمآسي.

حياتي كلها منامة..

عمري جوزتها ندامة..

في بلادي مانيش هاني..

وحداني طول الليالي..

خلاو في قلبي شامة..

في عمري زرعوا السامة..

حتى نفسي لي نساتني..

شدة في ربي العالي..





مسلسل مربوط..

بين ربع حيوط..

تلفولي لخيووط ... تلفولي لخيوووط...

"ديدين كلاش"

أبكي وحدتي وأعزي فرحتي اليتيمة، أكملت نصف يومي في الثانوية، فرحت لصديقاتي وفرحوا لنجاحي، باركو لي وباركت لهم، تبادلنا الأحضان والقبلات وكانت فرحتي لا تقدر بثمن، كذبت تنبؤات والدتي، ها قد نجحت وحصلت على تأشيرة الذهاب للجامعة، لم أنمّ منذ يومين، قلبي مرهق، وعيوني منتفخة مغمضة، لكن



باستطاعتي المقاومة للمساء، سأبقى يقظة حية، أغتنم كل فرصة للفرح والإحتفال بنجاحي، أعلم جيدا أن ذلك القبر الذي أنتمي إليه والناس الذي أعيش معهم لن يفرحوا لفرحي، إلا أبي وأخي وليد وغاليتي نجاة، أما الباقي فوجودهم في حياتي وعدمه سواء.

إستغليت كل دقيقة، ضحكت ملئ فمي، رقصت، تكلمت بصوت عالي وكأنني أخرج به كل غصة أحرقة قلبي منذ أيام، كان معدلي جيد نوعا ما، لم أصدق أن تلك الضغوط التي عشتها منذ أيام، كانت مجرد

وهم وإنقشع ضبابه، وهم زرعته بقلبي أمٌ لا قلب لها، ولا ضمير.

إتجهت صوب منزلي بعد إنتهاء حفلة الجنون مع صديقاتي، كان رمضان يسيطر علينا بهيبته، شعوري بالعطش أنهك قواي، كنت أحسب الخطوات كي أصل للمنزل، وألقي بنفسي في الماءالبارد، وأستلقي على سريري وأذهب في سبات عميق أعوض فيه ما لم أنمه منذ أسابيع مضت وستبقى ذكرى منقوشة على تلافيف الذاكرة.

وصلت للمنزل أخيرا، فتحت ودلفت، كسرت قاعدة أمي تغار مني وتكرهني، ولا تحب

الخير لي، إتجهت مباشرة إلى المطبخ حيث كانت.

وقفت على بابه وقلت بنبرة متحمسة:

-أمي نجحت...

لم تستدر لي مطلقا قالت بنبرة باردة:

-بصحتك، بدلي جوايجك وأرواحي تعاونيني، باباك جاب دوارة.

لم أكن أتوقع ردها هذا، " بصحتي؟" هذا هو مقدار حبك لي؟ أين هي كلمة " مبروك" أين هو ذلك الحضن؟ ولماذا لاأسمع زغاريت

في بيتنا كما أسمعها في بيوت الغير؟ لماذا لست كالكل! هل أنا إبنتك حقا؟

حسبي اللّه ونعم الوكيل...

بلعت غصتي وإتجهت للحمام أغرقت وجهي وكلي بالماء البارد، جلست تحت المرش وتركت للماء مهمة إطفاء النار التي إشتعلت بداخلي، خافقي ينبض بضعف، شعرت بالوهن ولم أقوى على النهوض، إختلطت عبراتي بقطرات الماء، وإختلطت نبضات قلبي، بسوء الحظ ومات حب أمي في قلبي يومها.

حتى لو عادت بعدها لن تجد مكان لها بقلبي الميت، لن تجد إبنة تنتظرها، ولن أحنّ عليها حتى لو بكت أمامي بدل الدموع دماً.

سقطت من قلبي كما تسقط دموعي الأن، ومن يعيد ترميم شرخ قلبٍ ينكسر في اليوم مائة مرة؟.

لا أدري كم من الوقت جلست هناك، شعوري بالعطش يزداد، غير أن رجفة باردة إستولت عليّ، كانت أسناني تصطك، قمت بتكاسل أغلقت صنبور الماء، ونزعت ملابسي وتدثرت بروب الحمام جيدا وإتجهت إلى غرفتي.

سمعت صوت أمي ينادي وأنا أجتاز الرواق إلى حيث سأنام إلى مالا نهاية، غير أنني لم ألقي لنداءاتها بالا، أغلقت باب غرفتي، وإستلقيت على سريري، ولا أدري ما حدث بعدها.

فتحت عيناي والغرفة كلها ظلام في ظلام، شعرت بالرهبة لأن فوبيا الأماكن المغلقة والمظلمة تأخذ حيزا كبيرا في حياتي، قرأت إسم اللّه ونهضت بحذر من سريري، بحث عن هاتفي وفتحته لأضيء مكان مفتاح النور، شعرت بالأمان ما إن أشعلت نور الغرفة، وجدتني لا أزال أرتدي روب الحمام، وشعري

هائج متناثر فوق رأسي، لملمته كيفما بدا لي، وغيرت ملابسي على عجل.

نظرت للساعة فوجدتها الثانية صباحا، يا سبحان اللّه كم نمت؟ لماذا لم يوقظني أحدٌ؟

فتحت الباب وإتجهت للمطبخ بخطىً سريعة، شعوري بالجوع أنهك قوتي، وجدت الأكل كله في الثلاجة، سخنت القليل من الحساء، وحبة عصبان، ولم أستطع حتى إنتظارهم ليسخنوا كما يجب، وضعتهم في طبق وجلست على المائدة آكل بشهية، منذ أكثر من شهر لم آكل بهذه النفس المفتوحة

كمل آكل الآن، صدقا " الصحة تاج فوق رؤوس الأصحاء لا يراه إلا المرضى."

لم أرفع رأسي عن الأطباق حتى شبعت، رفعت تلك الأطباق وضعتها في الحوض وحملت هاتفي أتفقد المكالمات الواردة.

وجدت كمًّا هائلا من الإتصالات من طرف العديد، منهم نجاة أختي، ويوسف، إلاهي أربعون مكالمة، أخرها منذ نصف ساعة، يبدو أنه ملّ إجابتي عليه فلم يعاود الإتصال.

إتصلت به فلم يردّ لابد أنه غاضب مني وما ذنبي أنا كنت نائمة؟

لا أزال جالسة إلى طاولة المطبخ، سمعت باب المنزل يفتح وصوت محمد ووليد، خرجت إليهم في خفة أبشرهم بنجاحي، غير أنني صدمت وتوقفت قبل أن أصل إليهم، كان يوسف بجانب وليد، تطلعت إليه بإستغراب، رجفة هزت كياني غير أن وليد قطعها بمزاحه:

-هذا وين تنوضي يالفنيانة.

لم أجبه، ولم أتجرء على الكلام، قال محمد بنبرة جدية:

-أراد يوسف أن يبارك لك بنفسه، قال أنك لا تردين على مكالماته.

أخذ وليد بيدي ودلف بي للصالون، بينما تبعنا يوسف، وبقيت أنا كالبكماء لا أتحدث.

جلست في أقرب مكان للباب، بينما جلس هو بجانبي، لم أتذكر أن هيئتي مزرية وشعري أشعث غير مرتب وبيجامتي طفولية، تحوي أشكالا لرسومات كرتونية، شابكت أصابع يدي مع بعض وضغطت عليهم، ولم أتكلم، ليكسر هو صمتنا بمزاحه الذي يجعل المجنون يضحك..

-يبدوا أنني سأغير رأيي، وأعيد حساباتي بالزواج منك، خدعوني وزوجوني بطفلة.

تطلعت إليه بإستغراب وقلت بنبرة متساءلة:

-ماذا تقصد؟

قال ببرود:

-أنظري إلى هيئتك وملامحك، وكأنك ابنة الخمس سنوات، هل يعقل لرجل في السابعة والعشرين من العمر أن يتزوج بطفلة لا تزال ترتدي بيجامات لرسومات كرتونية، ولا تمشط شعرها؟

تطلعت إليه في غضب وقلت بحسم، ونهضت من مكاني لأخرج من الصالون:

-كما تريد...

أمسك يدي بعنف وأجلسني مرة أخرى، وقال بنبرة غاضبة:

-لماذا لم تردي على مكالماتي؟

شعرت بالخوف من نبرته، كادت عبراتي تخونني وتسقط تباعا، إلا أنني تماسكت، وقلت بنبرة متشنجة:

-كنت نائمة، وكان الهاتف على الوضع الصامت.

ردّ بنبرة عنيفة :

-كل هذا نوم؟

إغرورقت عيناي بالدموع، وقلت بصوت متقطع.

-لم أنم منذ أسابيع، ماذا أفعل؟

ناظرني بطريقة باردة لينفجر ضاحكا بعدها

-هل ستبكين؟

يا إلهي تزوجت طفلة و " بكاية " أيضا، أي بلاء هذا الذي وقعت به؟

مسحت ما سقط من دموع، ظننت أن دموعي جفت وأنا التي بكيت ليلا نهاراً في الأسابيع الماضية وطيلة تسع عشرة سنة، غير أن هذا

لـم يحـدث لا تـزال لـي القـدرة علـى إنتـاج كميات هائلة منها.

أردف بندم جليّ ممسكا بكفي.

-لـم أقصـد أن أسـقط دموعـك الغاليـة هـذه، غيـــر أنـــك " بكايـــة " نـــدمت لأننـــي مازحتك.عموما آلف مبـروك علـى نجاحـك، سعدت جدا بك..

فخور بزوجتي أنا.

إبتسمت من بين دموعي، أول مبـروك أسـمعها، قلت بنبرة فرحة:

-اللّه يبارك فيك، شكرا لك.

لم نكمل حديثنا إلا ودلفت أمي، تجمد الدم في عروقي، سلمت على يوسف وجلست بجانبه، تبادلا التحايا سألته عن أهله ووالدته، وعن حال رمضان والصوم معهم، ثم قالت بنبرة باردة:

-لمياء لم تساعدني منذ دخل رمضان للآن، كل شيئ ملقى على كاهلي، لا معين لي في هذا المنزل.

كانت إجابة يوسف كمسكن لآلامي، قال بنبرة حاسمة ألجمها بها.

-لمياء كانت مريضة تعرفين أن مرض " بوصفاير " ينهك قوى الإنسان، لولا هذا لكانت ساعدتك، أليس كذلك لمياء!

هززت رأسي في توتر، بعد أن إحمرت وجنتاي من الخجل.

هل وصل بها الأمر لتشتكيني ليوسف؟

عشت طوال حياتي كالخادمة في بيتك، وعلى أولادك، نسيت كل ما سبق وركزت على أسابيع مرضت فيهم؟

آآآه كم أكرهك يا أمي، وكم أكره كوني إبنتك، حسبي اللّه ونعم الوكيل.

إستأذن يوسف للرحيل، غير أن أمي حلفت عليه يمينا أن يبقى لتناول السحور معنا.

قالت بنبرة باردة قاصدة إذلالي أكثر أمام يوسف.

-نوضي بدلي حوايجك، ألبسي حاجة بطبع، تباني خارجة من جوانفيل.

لا يا أمي يوسف يحبني كيفما كنت، لا داعي لكلماتك هذه، حتى أنني أبدو إبنة الخمس سنوات لا مجنونة هربت من المصحة كما قلت.

قلت بإبتسامة طائعة:



-حسن كما تريدين، سأغير ملابسي وآتي لمساعدتك.

***

ذهب إلى غرفتي غيرت ملابسي ومشطت شعري ووضعت مشبك أنيق، دق الباب، فأذنت للطارق بالدخول، كان " وليدي " عانقني وبارك لي نجاحي، وبعدها دلف محمد ورضا ، وكذلك فعلو، شعرت بفرحة تغمر قلبي، كل إخوتي في غرفتي يباركون نجاحي، وضع كل منهم مبلغا من المال في يدي كهدية لي، إسغليت تلك اللحظات التي لا تتكرر إلا مرة كل عشر سنوات،فتحت هاتفي وإلتقطت صورة

جماعية قبيل الإمساك، كان الجميع ملتصقون بي يعانقون أختهم التي إهملوها منذ كانت طفلة، كانت تلك الصورة كنز بالنسبة لي، تعمدت إخراج أربع نسخ منها، مع كل واحد منا نسخة، أردت تذكيرهم كلما نظرو إليها أن لهم أخت تحتاج لحنانهم ورعايتهم وحبهم، أخت أهملوها وتركوها بين يدي من لا ترحم.

تناولنا السحور جماعة، بارك لي أبي نجاحي أمام يوسف وبرّر ذلك أنني نمت طوال اليوم، فلم يجد فرصة للمباركة لي.

***

مرت الأيام مرور البرق، سجلت في الجامعة التخصص الذي أحببت وبدأت رحلة أخرى من الكفاح، وبدأت حياة جديدة تختلف كل الإختلاف عن الثانوية.

تعرفت على وجوه جديدة، وقت فراغ كبير، لم أعرف كيف أملؤه، كنت أكره العودة للمنزل مساءً، ولما عساي أعود؟ أعود لجحيم ما ألبث أتخلص منه لسويعات حتى أجدني فيه مجددا.

كان إهتمام يوسف بي وبدراستي جميل، مبرهنا على حبه لي بإهتمامه المتفاني، غير أن ذلك الإهتمام أصبح مكثفا لدرجة

الإختناق، كان يتصل كل نصف ساعة يسأل مع من أنا جالسة ومع من أتحدث، متى أخرج...

أصبح إهتمامه يشعرني بالضجر، لم يترك لي مساحة من الحرية، لم أكن أتذمر في بادئ الأمر، ومع مرور شهر ونصف ضعفت مقاومتي، وجدتني أكره فتح الهاتف فقط حتى لا تردني إتصالات منه تعكر صفو نهاري، أصبحت أتهرب من تحكماته الزائدة وغيرته غير المبررة، كنت أهرب منه ما إن أجده يبحث عني في الجامعة، وكيف له أن يلحق بي إلى هنا أيضا؟

قررت مواجهته، قابلته بكل ما أملك من شجاعة وثرت في وجهه بعد أن بلغ السيل الزبى.

قال بنبرة غاضبة بعدما وجدني جالسة مع صديقاتي في الخارج:

-هاتفك مغلق، إتصلت مرات عديدة، حتى إنني قلقت عليك، وأتيت بنفسي لأتفقدك.

قلت بنبرة باردة:

-خلص شحن البطارية، ماذا سأفعل؟ ولماذا أتيت أصلا هل أخبروك أن الجامعة تحوي وحوشا تأكل البشر، كما ترى أنا بخير، وفي أحسن حالاتي، شكرا لمجيئك.

لم تعجبه نبرة صوتي ولم تعجبه طريقة ردي عليه، فثار بوجهي كالعادة.

-لا تكلميني هكذا، أنا زوجك ولي الحق لأقلق عليك، ما هذه الدراسة التي تجلسين فيها خارجا أكثر من مكان الدرس، مجيئك هنا دوما لا داعي له، عودي للمنزل..

_ها؟ أعود للمنزل؟ هل أنت جادّ؟ عذرا لا أنت ولا غيرك يلقون أوامرهم في وجهي كما تفعل، أنا حرة ولا أفعل شيئا أخجل به، لهذا يمكنك الذهاب وعندما أقرر أنا سأعود للمنزل..

قلت ما قلت دون تفكير، ليثور بوجهي ويسحبني سحبا أمامه، وعاد بي للمنزل، وطول الطريق يسب ويلعن دخولي لتلك الجامعة.

***

مرّ وقت لا بأس به بدأت فترة الإمتحانات، وبدأت رحلة البحث عن دروس نراجع منها، فدروسنا ناقصة لا تحتوي كل المنهاج الذي درسناه، دلفت للمكتبة يومها مع صديقاتي، وبدأنا المراجعة، لم يتبقى إلا أياما على إمتحانات أظن أنني لن أتجاوزها في سلامٍ، كانت المكتبة مكتظة بالطلاب، لم أركز حتى على الدروس الموضوعة أمامي،

شعرت بالضجر من تلك الحالة، وفجأة أحسست بيد وضعت فوق ذراعي، صدمت بوجه يوسف المحتقن يناظرني بغضب، أشار لي بالخروج فخرجت دون أن أسبب مشكلة، وقفنا على مقربة من باب المكتبة، ليبدأ هو سيل الشتائم.

-كم مرة عليّ إخبارك أن هاتفك يجب أن يبقى مفتوحاً لماذا تصرين على فعل ما أكره؟ ومن ذلك الذي كنت جالسة معه؟

قلت بإستغراب وبدهشة:

-جالسة معه؟



طاولة المكتبة طويلة وعريضة، ويجلس عليها من يشاء ليست من ممتلكات أبي لأمنعه من الجلوس، لأن خطيبي المبجل يغار عليّ من نسمة الهواء.

كلماتي أشعلت ناره، مدّ يده بإتجاهي، ظننته سيصفعني، إبعتدت قليلا بوجهي من أمامه، زلّت قدمي، ووقعت من الدرج، وكسرت ذراعي..

أشهدت عليه البعض أنه من دفعني عنوة لأسقط، كان الخبر على أهلي كالصاعقة، لم يصدقوا ما حدث، لام أخوتي يوسف على تصرفه الطائش، وإستغليت أنا الفرصة لأنفذ

بجلدي، وأعيش حريتي بطريقتي، لا أريد لأحد أن يقيدني من اليوم وصاعدا.

يوسف الذي ظننته ملاك وتعويضا من اللّه على أيام شقائي لم يكن سوى نسخة طبق الأصل عن حياة سابقة عشتها بمرّها وسأعيش نفس المرارة معه، لا يثق بي ويضغط عليّ ويغار بشكل جنوني، ليست هذه الحياة التي طالما حلمت بها، هاربة من جحيم لأقع في جحيم يضاهيه أو يفوقه مرارةً.

ضاعفة أمي من حدة معاملتها السيئة معي، كانت تعايرني بأبشع الصفات وتدعي عليّ ليلا نهاراً، حرضت إخوتي عليّ، لم تكن

تتوانا في حشو قلوبهم ورؤوسهم بهتانا ضدي، وهذا ما نجحت به، كنت أتوجع من كسر يدي، وكسر خاطري، أردت القليل من الحرية، أردت أن أتنفس وأعيش حياتي طبيعيا كما يعيشها الناس حولي، لماذا يصرّ قدري البائس على تحطيم حياتي وسلب كل الناس الذين أحبهم.

أصبح إخوتي في صف والدتي، يأتمرون بأوامرها ويظلمون نفسا أنهكها البؤس دون أن يراعوا ظروفي السيئة ولا يدي المجبرة بجبس يلفها ويشد الخناق عليها.

مرّ أسبوع وأنا في البيت ألقيت قراري في وجوههم كالقنبلة، قلت بنبرة حاسمة غير آبهة لما سيحصل معي.

-قررت وإنتهى الأمر، أريد فسخ خطوبتي من يوسف، لا أريد الزواج لا به ولا بغيره.

إنتفضت أمي كالتي تلبسها جن صرخت في وجهي ولم أسلم من كلماتها الجارحة المتهمة بهتانا وظلما.

-والفتي الزنق، بنات الجامعة ياه، علاش تحوسي عالزواج وانت لتم من راجل لراجل، هو لي ميرضاش عليك يا...

تكلمت وتكلمت حتى حسبتها آلة لا تتوقف، أوقفها صوت رضا قائلا بغضب:

-لو فسختي خطوبتك لا تحلمي بالعودة للجامعة مرة أخرى.

هذا ما لم أتوقعه، كيف له أن يحرمني من دراستي من أجل رجلا كان سيودي بحياتي، قلت بنبرة مكابرة، معلنة تمردي على قوانينهم الجبرية:

-قررت وإنتهى الأمر .

رد محمد ببرود:

-إذن إنسي أنك دخلت الجامعة، ستتعفنين في المنزل كالكلبة ولن تخرجي بمفردك بعد الآن ضعي هذا في حساباتك المستقبلية.

أعلنت التمرد وأعلنوا الحصار، ويجب أن أفكر في حلٍ سريع يخرجني من هذه الورطة، فقرارات محمد وورضا لا نقاش فيها، وإذا تمسكت برأي لن أكون سوى الخاسرة الوحيدة في اللعبة.

بكيت دموع التماسيح أمامهم، ورجوت عطفهم وغيرت قانون اللعبة ليصبح في صالحي لا في صالح تلك الحية.

قلت بنبرة بريئة وقد تعلمت ذلك من أمي حين تريد لعب دور الأم الحنون معهم:

-لكنه كاد يودي بحياتي، دفعني من الدرج، كيف ستأمنون على أختكم مع رجل عنيف مثله، ماذا لو كرر نفس ما فعل وأنا زوجته، هل ستسكتون على ظلم أختكم وأنتم في الحياة؟

زفر محمد في ضيق وقال بنبرة هادئة محاولة إقناعي.

-تناقشنا بالأمر وشرح لي كيف حدث الأمر، قال أنه لم يلمسك أصلا، كنت قريبة من الدرج وزلت قدمك، وهذا كل ما في الأمر،

هل تريدين تلبيس الرجل قضية بهتانا، حرام عليك.

وافقه رضا ما قال، وتحول غضبهم المزعوم مني إلى سياسة إقناع كل واحد منهم يحاول إقناعي بالعودة له ومسامحته.

بعدما وجدتني خاسرة لا أمل لي في إقناعهم، كما أن إمتحاناتي لم يتبقى عليها الكثير، رضخت لهم، مصبرة نفسي أنني سأفكر في طريقة أخرى لأتخلص منه بموافقتهم، كل شيئا إلا دراستي حاليا.

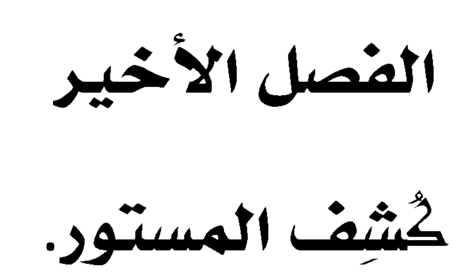
قطعت كل خيط يربطني بيوسف، عدت للدراسة بعدما نزعت الجبس قبل وقته،



غيـرت رقـم هـاتفي، وإعتكفـت فـي المنـزل أحـاول حفـظ دروسـي، مـرت أسـوء الأيـام علـيّ، ضغطُ رهيب من كل الجهات، إستطعت تجاوزه بفضل اللّه، قررت بعد أن إنتهينـا من إمتحانـات السداسـي الأول أن أتعـافي مـن مرضـي وشـعوري الـدائم بـالنقص، بحثـت عـن طبيـب نفسـي، وكـم كانـت سـعادتي لا توصـف وأنـا أحجـز مكـاني عنـد طبيبـة إكتشفت بعدها كـم هي رائعة وحنونة.

بـدأت رحلـة العـلاج دون أن أخبـر أحـداً حتـى الأقربون، كنت أسـرد كـل مـا مـرّرت بـه علـى مسـامع تلـك الطبيبـة الرائعـة، كنـت أدخـل

إليها مثقلة بالأوجاع والكلام الذي طالما حزّ في قلبي وأردت البوح به لأقرب المقربين، غير أنني كنت جبانة ماذا عساي أقول؟ هل أخبر الناس أن معاملة أمي لي سيئة؟ مهما تحدثت سأتلقى اللوم على بلادة عقلي، كيف لأم أن تكره إبنتها، الوحيدة التي صدقتني ولم تلمني، طبيبتي، وكم كانت راقية في تعاملها مع مشكلتي، صدقا أحسن مافعلته في حياتي زيارتها .



الفصل الأخير

كُشِف المستور.

____

كنت مداومة على الذهاب للطبيبة النفسية، مصرةً على التعافي من العقد الذي زرعت بنفسي، وكم كنت أخرج فارغة خفيفة كطفل صغير لا يفكر في شيئا ولا يشغل عقله إلا اللعب والأكل والنوم.

مرت حياتي روتينية لا جديد بها، جامعة منزل، وسوء معاملة، وسكوت من طرفي، وماذا عساي أفعل؟ هل أتمرد؟ طبعا لا سأكون الخاسرة الوحيدة لا محالآ.



وكلت أمري للّه، ورضيت بقدري وأكملت حياتي في نفس الروتين المُملّ.

كل جديد عن حياتي وكل قرار أسمع عنه كالغريب، قرر يوسف أن يعقد قرانه المدني عليّ ووافق أبي، بكيت أنا وتمردّت ومرضت ولم يشفع لي شيئا مع قرارهم وكلمتهم .

قال أبي بالكلمة منهيا حواره معي:

-مديت الكلمة للراجل، تحوسي تبهدليني مع ناس!

غير زواج هذا لي تتزوجيه، وإلا مراكي بنتي مراني راضي عليك.

"لست إبنتي ولن أرضى عنك " ومتى كنت إبنة لك؟ متى رضيت عني ونصرتني ووقفت إلى جانبي؟ أنت مجرد أبٍ بالإسم فقط، لا تفكر أن تلك الدريهمات التي تلقيها في يدي كل أسبوع، وذلك الأكل واللباس اللذان تمنّ عليّ بهما، يجعلانك قمت بمسؤوليتك على أكمل وجه.

لم تكن يوما إلى جانبي يا أبي، كنت أشتكي لك ظلم أمي وضربها لي دون سبب، وكنت تقول كلمتك المعتادة " معليش تكبر بنتي وتنسى " كبرت يا أبي ولم أنسى.. كبرت يا أبي ولم تتغير معاملة أمي

لـي، بـل زادت حـدة وجبروتـا معـي، مارسـت ساديتها في إبنتـكـ وأنـت مربـع اليـدين تتفرج ظلمهـا ولـم تحـركـ سـاكنا، وكيـف لـي أن أكون إبنتكـ بعد اليوم؟

***

سـألت نجـاة يـوم جـائتنـا زائـرة عـن سـبب تغيـر أمي معها، وتغير معاملتها لها.

قالت أن كل شيء يشترى بالمال حتى " الحب " وهذا ما لم أفهمه، كيف لي أن أشتري حبها وأنا بلا دخل؟

قالت لي:

-تعـرفين أن أمنـا ماديـة، رغـم أن لا شـيء ينقصـها، غيـر أنهـا تعشـق رائحـة الأوراق النقدية، وتسّرُ بإستنشاق رائحتها، أجزم أنها نائمة على ثروة، تعرفين بخلها أيضا.

كنت كلمها أتيت زيارة لكم أتيها بهدية كما تعلمين، وبعدها بدأت بإعطائها جزءً من المال، كانـت فـي الأول تتـردد فـي أخـذه، بعدها أصبحت تنتظر ذلك المصروف منـي، وكأنني مسؤولة عنها بالعامية " والفت بيا."

لم أكن أنزعج منها بتاتا، بالعكس، كان ذلك ما يشجعني كل مرة على تنويع الهدايا التـي أقـدمها لهـا، وكنـت أتعمـد أن أجعلهـا



فاخرة تليق بالحب والإهتمام الذي سأحصل عليه بالمقابل.

نجحت في كسب ودها بعد عشرون سنة من المعاناة والآلام النفسية والجسدية.

أحمد اللّه أن أيوب ميسور الحال ولا يسألني أين صرفت المال الذي يعطينيه كل فترة.

نجحت نجاة في التقرب إليها ببضع دريهمات، وماذا سأفعل أنا لكسب ودها؟

لا شيء سوى الدعاء بيقين إستجابة دعواتي والخروج من هذا السجن والفرار من براثينها.

***



كنت أحكي للطبيبة كل شيء، قررت سرّد معاناتي يوم عُقد قراني الشرعي، تذكرت ذلك اليوم وأنا عند الحلاقة أنتظر دوري، كنت كاليتيمة بلا أهل جالسة بمفردي، وعبراتي تملئ المقلّ، لا أدري لما أجد في كل إنسان أقابله ذلك العطف والحنان والإهتمام الذي لم أجده في أمي، كل شيئ يمشي بالعكس.

رأتني يومها صاحبة صالون الحلاقة، شعرت بالشفقة على دموعي وظنت أنني أتزوج من دون رضايتي، أخذتني إلى مكتبها، وبعد أن غسلت وجهي سألتني بإلحاح عن سبب دموعي،

كان شكُها يحوم حول أن أهلي أرغموني على الزواج غير أنني نفيت ما أشارت له، وبعد أن إرتحت لها قررت سرد معاناتي، علنيّ أنقص بعضا من حملي، ومن سيحمل معي همًّا لا تستطيع الجبال حمله.

سردت على مسامعها كل ما تذكرته، إستمعت لي بإهتمام بالغ ثم لم ألبث أن بكيت مرة أخرى، ضمتني بحنو إلى صدرها، وربتت على

يدي، وطمأنتني.

سألت بكل وضوح:

-هل تتزوجين من يوسف هروبا من منزلك؟



أجبت بكل ثقة نافية الأمر:

-بالتأكيد لا، أنا أحب يوسف وهو شخص طيب، وسيهتم بي وسينسيني ما عانيته بين أهلي.

قالت أن الزواج للهروب من ذلك الجحيم ليس حلاً، كان رأيها من رأي نجاة أختي، لكنني لم أهتم لهم، لا أحد يقدر معاناتي إلا أنا.

لا تزال كلمات خالتي ترنُ في أذني، لم أكن لأتوقع أن أمي عانت ما عانت ولا أدري أألومها على ظلمٍ كان دون قصدها أو به لا أدري، أم أنني سأكون نسخة طبق الأصل عنها يوما ما.

تعجبت صاحبة محل الحلاقة، وبدت الحيرة تكسو ملامح وجهها الوقور، تساءلت بحيرة وعيناها معلقتان بي تنتظر إجابتي التي ستكشف سرّ كره والدتي لي.

زادت حدة تأثري بما سردت عليها، لم أستطع كبح عبراتي، شعرت أن دموع العالم أجمع أحتكرها بمفردي.

صدقا لا أدري أين تخزن كل هذه الدموع، وكيف لي أن أبكي بهذه الطريقة وهذه الكمية كل مرة؟

ألحت في سؤالها عن سبب معاملة أمي لي، وسردت عليها ما سمعته اليوم قبل خروجي من المنزل.

-اليوم كانت خالتي في منزلنا، تساعد أمي وأختي في تحضير البيت ليكون ملائما لإستقبال الضيوف، إنفردت بي في غرفتي وإعترفت بإشياء أظنها لا تهمني، أو أنها أتت متأخرة، فما نفع ما سمعت اليوم، وماذا سيفيدني؟

زادت رغبة المرأة في سماع ما قصته عليّ خالتي فإستعجلتني لأقصه عليها.

-أها أكملي ماذا قالت؟

أخـذت نفسـا عميقـا وقصصـت مـا سـمعت مـن مفاجآت عليها.

-أرادت خـالتي أن تعـرف إن كنـت سـأتزوج براضتي أم هروبـا من ذلـك السـجن، وهـي من أقرب المقربين لي، وتعرف معاناتي جيدا.

أعتقد أن ما قالته جاء متأخرا جدا، ما نفع أن أسمع أن أمي مريضة نفسية اليوم؟

قالت أن معاناة أمي وهـي صغيرة تفوق معانـاتي الأن وما تفعله بي، قالت أنهن عانين مـا أعانيـه الآن مـن جـدتي -لا رحمهـا اللّه ولا غفـر لهـا- كانت تنكل بهم أيّما تنكيل، كانت جبارة لا أحد يستطيع أن يكبح ظلمها وساديتها.

كانت أمي حينها تفعل ما تفعله أمها في إخواتها البنات الأقل منها، كانت أسوء منها، أتصدقين؟

تاريخ عائلة أمي المرضي لم يكن معروفا لدي، خالاتي لسن كأمي، بالعكس حنانهم على بناتهم يضرب به المثل، لماذا تأثرت أمي فقط بما فعلته والدتها؟ لماذا حظنا هكذا؟

حتى حب وعطف الوالدين "حظ" وحظي كالمعتاد سيء للغاية.

أنا لا أنكر فضلها عليّ رغم تقصيرها لكن يكفي أنها لم تعترض على خروجي من البيت

و لـم تعتـرض علـى زواجـي و كأنهـا تريـد التخلص مني..

-رائع يا صغيرة رغم ما مررت بـه لا تـزالين على فطرتك الطيبة النقية ، قولي لي هل تحفظين القرآن ؟

-نعم بالطبع

-إقرأي لي تلك الآية التي تكلم فيها اللّه عز وجل عن بر الوالدين..

-حسن

بسم اللّه الرحمن الرحيم

﴿وَقضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إلَّا إيَّاهُ وَبالْوَالِدَيْن إحْسَاناً إمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً﴾

صدق الله العظيم.

بعد أن أنهيت الأية الكريمة سألتها برة مستفهمة:

-أظن أن للأبناء حق على آبائهم أيضا؟ أين حقي أنا؟ ماذا لو قلت لكِ أن لو كان بدي أمي حبس الهواء عني لما قصرت ولهذه اللحظة لن

تقصر في إفساد حياتي. أمي التي تكره كل ما يتعلق ببناتها، ولن تتوانا في إفراغ طاقتها السلبية فيهم.

على كلِ اليوم عقد قراني الشرعي على يوسف، وهو يوم إستقلالي أيضا، لا يجب أن أفكر فيما مضى من مآسي ومحن.

كانت الطبيبة تستمع إليّ بتركيز كبير، كثيرا ما كانت تسجل ملاحظات في مذكرة بيدها، ولم تكن تقاطعني أبدا، وهذا ما كنت أبحث عنه، شخصاً يستمع إليّ دون أن يلومني أو يقاطعني، مشكلة تصديق هذه المعاناة كانت تؤرق نومي، كنت أنهر نفسي

دوما حينما أضعف وأرغب في الشكوى للمقربين، غير أنني سأجد نفسي كمهزلة، لن يصدق عاقلٌ أن ما أرويه عليه حقيقي، سيعتبر خيالي واسعا وسيصفق لي على براعتي في تأليف القصص، العديد ممن هم في سني أو أقل يتشاجرن مع أمهاتهم، ويشعرون بكرههم لهم، سواء لخوفها الزائد أو تحكماتها في حياتهم دون وجه حق.

كنت غير الجميع، ما أعانيه لم يكن وليد سن المراهقة أو بسبب طيشي أو عصياني وعقوقي لها، ما أعانيه إكتشفته وأنا إبنة الخمس سنوات، كنت غير الكل معاملة أمي

لي إستثنائية، وهذا ما حزّ في خاطري، لماذا لست كأقراني؟ لماذا حظي بهذا السوء.

آخر جزئية تذكرتها وسردتها على الطبيبة والتي كانت الفيصل في قصتي وإنهاء معاناتي مع يوسف الذي لم يكن له ذنب، إلا أنه وقع في طريقي، أنا الناقصة المليئة بالعقد النفسية، بعد أن رتب مع والدي الشهر الذي سيعقد فيه قراننا المدني، إزدادت الأمور سوء، كيف لي أن أتزوجه وأظلمه معي؟ حاولت بكل الطرق إقناعه أنني لست مناسبة للزواج، غير أنه كان كالصنم لا يستمع لما

أقولـه، أو أنـه إعتبرهـا حربـا ، وأصـرّ أن يخـرج رابحا منها.

وقتها فتحت حسابا وهمي في موقع التواصل الإجتمـــاعي " الفيســـبوك " كنــــت أريـــد التأكـد أن هـذا الشـخص يحبنــي فعـلا أم أنـه كالكل، مزيف..

صدق من قال " لي يحفر حفرة لصاحبو يطيح فيها " وجدتني أنـا من أحـدث شـابا وأنـا زوجـة لـذلك المسـكين، أحادثـه لـيلا نهـارا إلـى أن تعلقت بـه، وأصـبحت لا أفكـر إلا بـه، ونسـيت هدفي من فتح ذلك الحساب، وغرقت في حب

زائف يطفئ شعلته مع طلوع النهار، وكم كنت ساذجة.

كل ما خططت له ذهب أدراج الرياح، ووجدتني أقع في أشياء لم أكن أظن أنني سأفعلها يوما، وماذا سأفعل؟

كل هذا بسبب الفراغ العاطفي وضعف وازعي الديني وأنا التي كنت أمشي كعقارب الساعة.

كنت ضحية فأصبحت جانية، يوسف لا يستحق فتاة مثلي، ولا يستحق لأولاده أمًّا مثلي، لن أكون سوى نسخة مصغرة من تلك

الحافية التي حطمت حياتي، وماذا سأكون غير ذلك؟.

كنت كثيرا ما أنسحب وأعود كالبلهاء لأجد نفسي غارقة في حب محرم عليّ، أتبادل عبارات الغزل مع غريب، يبكيني إهماله وردّه المتأخر، تضيق نفسي حين لا أجده نشطا، وكثيرا ما تصرفت على سجيتي وأنا أحادثه، عكس يوسف وعكس تصرفاتي معه.

لم أحدث يوسف يوما من ذلك الحساب، كثيرا ما تناسيت مشاكلي، وكثيرا ما نمت

قريرة العين بعد محادثة مليئة بالحب الوهمي.

سردت معاناتي عليه، وسردت ما يوجع قلبي، وكم من مرة نويت الهرب لأبعد نقطة في العالم هروبا من واقع فرض عليّ عيشه.

***

كان لي سندا في ذلك البيت الموحش وغادرني، إستدعي "وليد" لآداء الخدمة الوطنية، وتركني كالحمامة التي قطعت أجنحتها حتى لا تطير، سيغيب حضني الدافء، وإبني البكر، بكيت وأنا أحضر له ما سيأخذ في حقيبته، عانقته بشدة ودموعي

تبلل وجنتاي وملابسه وأنا في حضنه متشبثه، تركته يرتاح ليسافر صباحا إلي حيث سيتركني، وهو من وعدني ألا يفرق بيننا غير الموت، تركـ يدي وتخلى عني كما فعل الجميع.

وجدتني وحيدة من جديد، لا كتف أبكي عليه ولا ونيس يخفف ليالي وحدتي، ودعته وذهب قلبي معه، وكيف لي أن أتخلى عن يده وهو الذي لم يترك يدي، وكان كأم لي.

***

آخر حصة علاجية عند الطبيبة النفسية ، قالت اليوم أنها ستحلل حالتي وترشدني إلى



كيفية التعامل مع وضعي، وسبب ما تفعله أمي بنا ، قالت بنبرة واثقة:

-مما لا شك فيه أن الأمومة هي فطرة فطر اللّه عليها المرأة، ولا أتصور أن هناك أما تكره إبنتها وقد غرس اللّه فيها هذه البذرة، ولكن التربية الخاطئة التي تتلقاها الأم في طفولتها والذكريات السيئة التي تختزنها ، تؤثر بشكل كبير على علاقتها بإبنتها لأن فاقد الشيء لا يعطيه، فالأم التي عوملت بقسوة في مختلف مراحل عمرها ، قد لا ننتظر منها أن تعامل إبنتها معاملة حسنة، إلاّ إذا حاولت القفز فوق كل هذه المراحل حتى

لا تنقــل الخبــرات الســيئة لإبنتهــا، هــذا بالإضــافة إلــى أن هنــاك أمهــات يفتقــدن للثقافــة التربويــة الصــحيحة التــي تــؤهلهن للتعامل مع بناتهن بشكل صحيح، ليس لأنهن أميات وإلاّ لما كانت أمهاتنا أنجح الأمهات في تربية الأبناء و إنما لأن المرأة الحديثـة، التـي تخصـص وقتـا كبيـرا لمشـاهدة التلفزيـون والتحـدث فـي الهـاتف والتسـوق، لـم تعطـي لنفسـها الوقـت لـتعلم بعـض الأمـور التربويـة المفيدة.

لـذا عليـك أن تكـوني أوعـى وأنضـج مـن أن تجعلي سلاحك الوحيـد ضـد ظلمهـا البكـاء



لا غير، البكاء لن يغير من الأمر شيئا، سيوصلك لطريق مسدود .

لا أمك ستغير طريقة معاملتها، ولا أنت سترضين بالواقع، وسندور في حلقة مفرغة لن نصل لأي نتيجة بها.

تساءلت بإستسلام

-ماذا أفعل؟

ردت بنبرة واثقة عملية:

-أولا عليك مراجعة علاقتك بيوسف، هل تريدين إكمال ما تبقى من حياتك معه؟

قلت دون تردد :

-طبعا لا، ما كان بيننا لم يكن حبًا، كان وهما لا غير، صدقت نجاة حين قالت أنني قبلت الزواج منه هروبا من المنزل فقط، وهذا ما لا أريده حاليا، أريد فسخ خطوبتي منه قبل العقد المدني، وهذا ما أسعى لتنفيذه.

لا أريد أن أظلمه معي، لا ذنب له أن يعيش مع فتاة لا تحبه، صدقا يستحق الأفضل، ولا أريد له أن يتضرر من علاقتي به، يكفي ما عاناه للأن.علاقتنا كانت أكبر غلطة، سأعمل على إصلاحها.

هزت الطبيبة رأسها بتفهم وقالت بنبرة حانية:

-حسنا هذا قرارك بما أنك ترين أن علاقتكما لن تدوم، ولا ترين من داعي للسعي لإصلاحها، فبقاءك معه سيكون ظلما له ولنفسك..

أومأت إيجابا ولذت بالصمت، بينما أردفت هي:

-لم يكن عليك أن تكبت معاناتك وما يحصل معك، إذا كانت لك صديقات مقربات، لماذا لا تقصين عليهم بعضا من الأشياء التي تزعجك، فهذا سيكون أفضل علاج لك، البوح سيساعدك كثيرا وسيعجل من شفاءك، حتى لو لم تبوحي يكفي أن تكتبي ما تعيشين على الورق،



أشتري دفترا مميزا، وقلما خصيصا له، وكل ليلة أكتب ما مرّ عليك في يومك ذاك، هذا سيساعدك كثيرا صدقيني..

تدرين أن الأمراض المزمنة والمستعصية لم تعد سببا في إرتفاع نسبة الوفيات الآن، لم يعد السرطان أو مرض القلب أو السكري أو حتى ضغط الدم سببا في موت الفجأة، إنما الكبّت.. أجل يا عزيزتي الكبت هو من يقتل، وهو من أمراض العصر الذي يأدي إلى الإكتئاب ويوصل الإنسان للإنتحار .

أنت مثقفة وواعية حاولي تغيير طريقة حياتك، وستتجاوزين كل حاجزا يضعه

الناس في طريقك، حتى لو كان أقرب المقربون، صحتك أهم من أن تضعي إعتبارات للمثبطين حولك، إجعلي مأساتك هذه سببا لنجاحك، إجعليها دافعا لمواصلتك .

كوني قوية، فلا أحد يستحق.

كانت كلماتها كالبلسم على جرحي، طاقة كبيرة إمتلأت بها نفسي، وقررت أن أنهي علاقتي بكل شخص لا يناسب طموحي ولا يناسب حياتي القادمة، وبدأت بيوسف..

إستدعيت محمد ورضا في إجتماع عاجل في غرفتي، وحاولت التكلم معهم بطريقة

أكثر تحضرا، بينما إستمعا هما ووجوهم سوداء من الغضب.

-يا أخي تعلم جيدا ما مررت به وما عشته في هذا المنزل، لم أجد سندا وحانيا غير وليد، حتى أنتما لم تكونا سوى أخوة يجمعها دفتر عائلي لا غير، لم أطلب منكم شيئا قبلا، واليوم أطلب منكما أن تكونا سندي ولو مرة واحدة في الحياة.

خطوبتي تلك كانت أكبر غلطة، قبلت بصديقك يا محمد هروبا من المنزل فقط ومن حياة لا أريد الإستمرار بعيشها، كان تفكيري طفولي غير ناضج، غير أنني إفقت



الآن ولا أرغب في ظلم يوسف أكثر مما ظلمته معي.

أريد فسخ هذه الخطوبة قبل عقد قراني المدني، وأريدكما أن تباركا قراري، لا أزال صغيرة ولا يزال الطريق أمامي، أرجوكما قفا في صفي، لا ذنب ليوسف ليحظى بزوجة مثلي، أقسم أننا لسنا متكافئين، هل يرضيكما أن أتزوج وأعود لكم حاملة لقب مطلقة؟

كانا يستمعان لي دون أن يتطلعا إلى وجهي، لا أدري حقا لماذا تجنبا النظر إلى، هل يا ترى

شعورهم بالذنب؟ أم أن الذكر لا يشعر بمعاناة الأثنى حتى يراها في القبر؟

لم أكن أتوقع تصرف محمد يومها، أخرج من جيبه حافظة نقوده وأخرج صورة مطوية، فتحها وناظرها مطولا لينفجر باكيا بعدها، كانت نفس الصورة التي إلتقطناها يوم نتيجة البكالوريا، وتلك أول مرة وأخرها أرى دموع محمد ورضا.

قام من مكانه وجلس بجانبي وعانقني، وهو الذي كان يقبلني كل عيد بلا مشاعر، عانقني وكذلك فعل رضا وكنت بين

يديهم كعصفور صغير وقع من العش ولم يجد سوى ديك حاوطه بجناحيه.

بارك رضا قراري وكذلك فعل محمد، وإعتذرا تقصيرهم تجاهي، ووعداني أن تتغير معاملة أمي لي، وعداني أن يكلماها على إنفراد وأن يعاتباها على معاملتها السيئة لي.

وكم فرحت أن اللّه عوضني بسندين بدل السند الذي فقدته..

بكيت حتى جف دمعي، ووصلني خبر فسخ الخطوبة من رضا هاتفيا وهو الذي لم يتصل على رقمي مطلقا حتى أنني تعجبت من أين له برقم هاتفي.



أصبحت حرة طليقة الآن، تغيرت طريقة رؤيتي للأمور، لم أعد تلك الساذجة الغبية، قطعت علاقتي بكل شيء وهمي في حياتي، وأرغب في فتح صفحة جديدة تكون حقيقة لا وهمية، غير مليئة بالخزعبلات..

أحضر حاليا لإمتحاناتي في جو لم أعتده من قبل، راحة نفسية وجسدية لم أعشها من قبل، راحة لم أشعر بها طيلة إثنان وعشرون سنة، الأن فقط تحررت وأصبحت لمياء جديدة لا شيء ينغص عليها حياتها.

الحرية شيئ جميل، شعور رائع قليل من عاشه وقليل من سيشعر بلذته بعد فقده، وكأنني كنت في سجن ونلت حريتي بعد طول معاناة..



الخاتمة

____

لم أصدق نبأ وفاتك.

كذبت ما سمعته أذناي من ضجيج وصراخ في منزلك.

لا أدري كم من الوقت لزمني لأصل إليك.

قال أنك في الغرفة " تُغسّلين " تُطهرين من ذنوب الدنيا.

لم يسمحوا لي أن أقترب من ذلك الباب الذي يفصلنا.

لم يسمحوا لي برؤيتك وهم يحضرونك للبس الأبيض.

ستزفين اليوم عروسا إلى مثواك الأخير .

ها هناك والدتك بين النسوة جالسة.

ملتحفة بالسواد حزنا عليك.

تذرف عبارات الندم أو أنها تمثيلية تخفي بها قذارة نفسها.

لا أحكم على سريرتها يا صديقتي لكنك اليوم...

لا تحتاجين دموعها وشفقتها.

لا تحتاجين حبها وعطفها.



لم تعيشي حياة تمنيتها وحلمت بها.

كنت كالطير المجروح تتخبطين بين أمور تجهلين خلفياتها.

كأمك أنا..

حدثتك ليلتها، ولم أشعر بدنو موعد الرحيل.

لم تشتك يومها شيئا.

كنت كالملاك.

سلبوك حق الحياة.

واغتصبوا إبتسامتك.

أرقدوك في حفرة باردة.



وزفوك عروسا ميتة.

زفوك إلى مثواك الأخير.

حيث لا تموتين في اليوم ألف مرة.

واثقة أنا أن الله عوض صبرك.

جنة.

واثقة أن الله أبدلك .

أهلا خيرا من أهلك .

وحبا غير ذلك الوهم الذي تمسكت به.

عوضك عني خيرا.

أنا التي قصرت في حقك.

أطلب الصفح اليوم يا صديقتي.

فهل تسامحين أختاً كانت تجهل موعد رحيلك.

نامي يا قرة العين نامي.

إستعجلتي الرحيل .

غير أن دمعي لم يجف على فراقك.

إغفري قلة حيلتي.

إغفري هفواتي وزلاتي.

ستكون قصتك صدقة جارية.

سيترحم عليك كل من يقرؤها.

وهـذا أبسـط مـا بإسـتطاعتي تقديمـه تعويضـا لكـ.

لويزة بداوي



ختاما

لكل من تعيش نفس مأساة لمياء، لا شيء يستحق ولا أحد يستحق دموعك ونحيبك كل يوم على وسادتك خفية..

أنت قوية قادرة على تغيير قدرك، لا تكتمي معاناتك، أسردي ما تعانين على صديقة أو قريبة، قلبك وروحك أمانة لديك، حافضي عليها، ولا تنسي برّ والديك حتى ولو عاملوك بالسوء، لا تنسي الدعاء، فالدعاء يحقق المعجزات ...

آخيـرا " كـل من عليها فـان(٢٦) ويبقـى وجـه ربــكـ ذو الجــلال والإكــرام(٢٧) " ســـورة الرحمان.

لويزة بداوي